

فؤاد افرام البستاني

في مئويّة ولادته

١٩٠٤ - ٢٠٠٤



سلسلة

آفاق ثقافيّة

فؤاد افرام البستاني
في مئويّة ولادته
١٩٠٤ - ٢٠٠٤

تحـــريـــر جورج مغامس
منشـــورات جامعة سيّدة اللويزة
ص.ب.: ٧٢ زوق مكايل - لبنان
تلفون: ٠٩/٢١٨٩٥٠/١
فاكس: ٠٩/٢١٨٧٧١
www.ndu.edu.lb
تـنـفـيـذ مطابع معوشي وزكريّا
الطّبعة الأولى حزيران ٢٠٠٤
الـقـيـاس ١٤,٥×٢١,٥ سم
ISBN: 9953-418-55-1

سلسلة

آفـاق ثقافيّـة

فؤاد افرام البستاني

في مئويّة ولادته

١٩٠٤ - ٢٠٠٤

تنظيم

جامعة سيّدة اللويزة، فرع الشوف - دير القمر

الجمعة ٢٨ أيّار ٢٠٠٤

منشورات
جامعة سيّدة اللويزة
NDU PRESS

في البرنـامج

الافتتاح

سهيل مطر

رئيس جامعة سيّدة اللويزة الأب بطرس طربيه

نائب رئيس مجلس النوّاب إيلي الفرزلي

الوزير مروان حماده

النقيب عصام كرم

د. حارث البستاني

ذكريـات

المشاركون: النقيب محمّد البعلبكي

د. ألبير ساره

هنري زغيب

جلسة أكاديميّة

رئيس الجلسة: د. منصور عيد

المشاركون: د. أحمد أبو حاقة

د. دياب يونس

د. غالب غانم

د. أهيف سنّو

الافتتاح

سهيل مطر

رئيس جامعة سيّدة اللويزة الأب بطرس طربيه

نائب رئيس مجلس النواب إيلي الفرزلي

الوزير مروان حماده

النقيب عصام كرم

د. حارث البستاني


فؤاد افرام البستاني
دير القمر ٢٨ / ٥ / ٢٠٠٤

سهيل مطر
مدير العلاقات العامّة

رزق الله

أيّها الأصدقاء

... وتبقى دير القمر هي الجامعة، ويبقى فؤاد افرام البستاني هو الجامع، وتبقى جامعة سيّدة اللويزة مساحة تلاقٍ وحوار ومحبّة؛ وما جمعته دير القمر وفؤاد افرام البستاني وجامعة سيّدة اللويزة، لا تفرّقه أهواء أو انتخابات أو تجاذبات عابرة.

فتقديراً لهذه المناسبة، وتحيّة لفؤاد افرام البستاني، نقف جميعاً دقيقة إعجاب وتقدير، والوقت ليس للحداد والحزن، احتراماً لذكرى هذا الرجل الكبير.

أيّها الأصدقاء

أدع جانباً علاقتي الشخصيّة بفؤاد افرام البستاني، وهي نتيجة عاملين:

الأوّل أنّني كنت طالباً، في الستّينات، في الجامعة اللبنانيّة، وكان هو رئيساً، وكنّا يومئذ، كطلاّب، أصحاب أحلام كبيرة: كان همّنا التغيير، بناء الدولة، ترسيخ قواعد الحريّة والديمقراطيّة. وكنّا نتجاوز، أحياناً، حدود لبنان، إلى المطالبة بتغيير المنطقة والعالم. وكانت الوسيلة: الإضراب - التظاهر - الاعتصام؛ وأولاني رفاقي والزملاء مسؤوليّة رئاسة الهيئة الطلاّبيّة، وكانت مواجهات كلاميّة وصدامات، والطالب المشاغب يصوّب على رئيس

جامعته، ويقابله الرئيس بتلك الابتسامة الأبويّة: يا ابني، روق. وتتردّد هذه الـ "يا ابني" حتّى اليوم، تحمل معها الخبرة والمحبّة والطيبة.

العامل الثاني، رفقتي وزمالتي وصداقتي لبعض أولاده، ولا سيّما حارث، وهي زمالة تجاوزات الصف إلى صداقة يحلو معها السمر واللهو. وكان بيت الوالد، في دير القمر، مسرحاً لبعض لقاءاتنا ولهونا؛ ورئيس الجامعة، يغضّ الطرف... فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر...

أترك هذين العاملين، لأقف فقط عند الصورة:

رغم غنى الحياة الجامعيّة، وفي مختلف المراحل والتطوّرات، فإنّني لا أحتفظ إلاّ بصورة تسلّمي الشهادة من يد فؤاد افرام البستاني.

سيّدي الرئيس

اليوم، باسمي وباسم أجيالٍ تسلّمت الشهادة من يديك، أقول لك شكراً، وأضيف: أنا نادم كثيراً على الحجارة التي وجّهتها إليك، وأنتَ شجرة الأبجديّة المثقلة بالثمار. وأمام هؤلاء الحضور أعترف أنّ كلماتي إليك، هي بعض ما أعطيتنيه، فهذه بضاعتك تردّ إليك.

ويا سيّدي، يا رئيس الجامعة،

الطالب المشاغب، يقف اليوم، أمامك، ليقول: رزق اللّه!

لا تسألني: على ماذا؟ أو لماذا؟

موجع صوت الأحلام وهي تتكسّر!

وبعض الكلام ببعض الدمع يُختصر!!

وشكراً.

الأب بطرس طربيه
رئيس جامعة سيّدة اللويزة

أيّها الأصدقاء

أهلاً بكم، في جامعة سيّدة اللويزة، وفي هذه البلدة المعطاء، وفي هذا الجبل الكريم، بشراً وشجراً وحضارة.

نحن على موعد، اليوم، مع فؤاد افرام البستاني، ونقف في ظلال روحه، عند ثلاثة عناوين:

- الهويّة: ابن البستاني، ابن دير القمر، ابن الشوف، ابن لبنان، أبو يحيى، المارونيّ المنفتح، المغامر، الباحث، العروبيّ بامتياز يومَ العروبةُ هي ثقافة وأخوّة وروائعُ لم يكتشفها أحد كما كشفها فؤاد افرام البستاني.

- الجامعة: هو، ولا شكّ، مؤسّس الجامعة اللبنانيّة، ورئيسها لسنوات طويلة؛ ولكنّه، في عطاءاته، هو الجامعة اللبنانيّة، بالمعنى الحضاريّ الوطنيّ. وما لقاؤنا اليوم، حول اسمه، إلاّ دلالة على شموليّة هذا الرجل وعطاءاته. ونحن، وإن كنّا مسؤولين، في جامعة خاصّة، إلاّ أنّنا نعترف، أمامكم، أنّ هذا الرجل قاد الجامعة اللبنانيّة، بعمل وجهد ونشاط، حتّى أوصلها إلى المستوى الراقي البنّاء؛ وكثيرون منّا هم ثمرة تلك الجامعة، التي نريدها، دائماً، زهرة الجامعات.

- الموسوعيّ الكبير: هذا الرجل لا يُسجن ضمن قفص واحد، كأنّ نقول عنه: معلّم، مؤرّخ، روائيّ، لغويّ، أديب، أستاذ جامعيّ، رئيس جامعة،

باحث، دكتور، مجموعة أوسمة وألقاب... لا، هو أكبر من لقب ووسام ومقام. إنّه مجموعة قيم وأعمال وابداعات وروائع. وكم نحن، بحاجة، في هذا الزمن، إلى مثل هؤلاء الناس. فإذا كان الآخرون عدداً، فهو وحده الجودة والقياس، وإلى قامته يتطاول الآخرون.

أيّها الأصدقاء

انطلاقاً من هذه العناوين، تفخر جامعة سيّدة اللويزة باستقبال هذه الكوكبة المضيئة من أهل العلم والأدب والوطنيّة، وهي تعتبر أنّ إحياءها ليوم فؤاد افرام البستاني، في مئويّة ولادته، وفي عشريّة وفاته، إنّما هو واجب إنسانيّ وطنيّ حضاريّ، كما هو، وبصورة خاصّة، واجب شخصيّ على الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، وهو الصديق الذي، ولسنواتٍ عديدة، كان يمضي أسبوع الآلام في دير سيّدة اللويزة في زوق مصبح، حيث كان للجلسات معه نكهة الثقافة والظرف على بعض التقشّف في الطعام، وعلى الكثير من الصلاة النابعة من القلب.

وإذا كان فؤاد افرام البستاني، قد خرج من سجن الجسد، إلى فضاء الروح، فقد خرج قبل ذلك، من سجن الادارة والوظيفة والمهنة، إلى فضاء الوطنيّة الرحب؛ ويبقى اسمه علامة مضيئة في تاريخ لبنان، وفي بناء حضارة النهضة العربيّة.

فتحيّة تقدير لمن نظّم هذا اللقاء ولمن عاون على إحيائه، منوّهاً بجهود مكتب العلاقات العامّة وإدارة هذا الفرع وإدارة فدرال بنك، مؤكّداً لكم أنّ هذه الجامعة ستبقى منبراً مفتوحاً لكلّ نشاط حضاريّ خلّاق؛ فبالحريّة والبحث والحوار تحيا الجامعة ولبنان. عشتم وعاش لبنان.

إيلي الفرزلي
نائب رئيس مجلس النوّاب

أيّها الكِرَام

عَلاّمَةَ الأدبِ والثقافة، جِهْبذُ العربيَّةِ، هيرُودُتُسُ التاريخِ، رائدُ النُّبْلِ السياسيِّ والصَّحَافيُّ ذَو الكلمةِ الفَصْلِ والرأيِ القاطِعِ كَحَدِّ السَيفِ، مَنْ وَعَى حَقَائقَ الكِيَانِ اللبنانيِّ المُتَجَذِّرِ في العصور والأصالة، مَوْسُوعَةُ الفِكْرِ وَسَادِنُ شَتَّى فُروعِ المعارفِ، مُرَبِّي الأجيالِ من الكِبَارِ، الدكتور فؤاد أفرام البستاني أَخْلَدَ إلى السَّكينةِ ورَحَلَ بَعْدَ أَنْ "مَلأَ الدنيا وشَغَلَ الناس"، كاتباً أَسْفَاراً بِمِدَادِ الذَّهَبِ، ومُرَصِّعاً جَبْهَةَ الخُلودِ بِما لا يُدْرِكُهُ زَوَال.

بينَ خَمْسَةٍ، أو سِتَّةٍ من كِبَارِ الشَّرْقِ ولبنان، كانَ وَسَيَظَلُّ جُذْوَةَ نُورٍ وشُعْلَةَ مَعْرِفَة.

غَرَّبَ في بطونِ التواريخِ القديمةِ، وشَرَّقَ في أعماقِ الماضي وأَسَاطيرِهِ، فأعطى لبنانَ والتاريخَ العالميَّ، القديمَ والحديث، ما يُشَرِّفُ ويَبْهَرُ.

وُسمَ فؤاد البستاني في القرن العشرينَ بِسِمَةِ الغزارةِ والنَّوْعِيَّةِ، فكانَ له تُرَاثُ القِصةِ والأدبِ والنقدِ وَطَرائقِ التعليمِ والتاريخِ ودائرةِ المَعَارفِ ومَلاحِمِ الاغترابِ وسِيَرِ القدِّيسين، ولم يَتْرُكْ موضوعاً يُفْلِتُ من مِقْبَضِ ريشتِهِ.

البستانيُّ المُؤَلِّفُ الموسوعيُّ، المُرَبِّي وأستاذُ المعاهد ورئيسُ الجامعةِ اللبنانيَّةِ الذي ثَبَّتَ لها أركاناً، هو مُعَلِّمُ الفلسفةِ والتاريخِ والأدبِ، وأستاذُ

المعلِّمينَ، شَرَّفَ الأكاديميَّةَ الدوليَّةَ للعلومِ السياسيَّةِ في "جنيف" بانتمائِهِ إليها.

أَحبَّ فؤادٌ، كما جبرانُ، في الأدبِ، ثلاثةً: التمرُّدَ والإبداعَ والتجرُّدَ، وكَرِهَ، مِثْلَهُ، في الأَدبِ ثلاثةً: التقليدَ والمَسْخَ والتعقيدَ".

وَهْوَ، طَالَمَا صَبَغَ أَدَبَهُ ولوَّنَ تاريخَهُ بأُسلوبٍ نَاصِعٍ واضحٍ تأسِرُهُ البلاغَةُ وقُوَّةُ السَّبْكِ والجَزَالة، فكانَ له نَثْرٌ مُمْتِعٌ مُمْتَنِعٌ جَعَلَهُ نَسيجَ وَحْدِهِ. وفيه، قبلَ غَيرِهِ، يَصِحُّ قولُ "بوفون": "الأسلوبُ هو الإنسانُ نَفْسُهُ".

ما مِن شَكٍّ أَنَّ بَيْنَهُ وبينَ الجاحظِ وَشَائجَ قُرْبَى وصِلاتِ ظَرْفٍ وتَنَدُّرٍ، على أَنَّ أديبَنَا الكبيرَ، كانَ أكثرَ عُمْقاً وأَغْزَرَ عِلْماً ومُعْطَيَاتٍ حضاريَّةً.

لقد جَمَعَ، له، ثَرْوَةً، لا مِن كُنُوزِ الدنيا ومَتَاعِهَا، ولكنْ من الثقافةِ اصْطَفَاهَا، ومِنَ الرَّوائعِ.

قالَ ميشال شيحا: "إِنَّ عصراً مِن دونِ شعرٍ كارثةٌ كونَوِيَّةٌ"، ونحنُ نقولُ: إنَّ عصراً من دون فؤاد البستانيّ كارثةٌ ثَقَافيَّةٌ.

ما أَعطى البستانيُّ كان فَيْضاً مِن سَخَاءٍ ومحبَّةٍ، مُتَمَثِّلاً قولَ بولسَ الرسول: "لو كنتُ أَنْطِقُ بأَلسنةِ الناس والملائكةِ ولم تَكُنْ فيَّ المحبَّة، فإِنَّما أنا نَحَاسٌ يَطِنُّ أَو صَنْجٌ يَرِنُّ".

يَكْفِيهِ فَخْراً أَنَّه جَعَلَ ديرَ القمر حاضِرَةَ التاريخِ اللبنانيِّ فِكْراً وسِيَاسَةً، وَدَوَّنَ اسْمَهَا في سِفْرِ الخلودِ.

شكراً لِرَهْبَنَةِ الإخوَةِ المَرْيَمِيِّينَ الذينَ تَذَكَّرُوا هذا العظيمَ في الذكرى المئويَّةِ على وِدلاته. الشكرُ لكم جميعاً.

فؤاد البستاني عبقريٌّ فَذٌّ من بِلادي لن يَنساهُ وطنُ الأَرزِ مادامَ نُسغُ المعرفةِ "يَسيلُ في شَرَايينِهِ ويُنَمِّي الثقافَةَ والأجيالَ".

لقد كان فؤاد أفرام البستاني مُعَلِّمَ المعلِّمينَ وَخَاتَمَ كِبَارِ المثقّفينَ.

عِشتُمْ، عاشتِ الثقافةُ وعاشَ مَوْطِنُهَا لبنان.

مِـن غِـمْـدِهِ الـكِـبْـرُ لَـوْ يَـنـضُـوهُ، فـالـقَـلَـمُ
سَـيْـفٌ، عَـلـى حَـدِّهِ الإِبـداعُ يَـنْـتَـظِـمُ!

إنْ سَـالَ حِـبْـرٌ عـلـى طِـرْسٍ شَـذَتْ كُـتُـبٌ،
أَوْ سُـلَّ عَـضْـبٌ، تَـلاشـى الشَّـكُّ والـنَـدَمُ.

خَـلْـفَ الضُّـلـوعِ رِحَـابُ الـحُـبِّ مُـشـرَعَـةٌ،
ذاكَ الـيَـرَاعُ فُـؤادٌ، والـمِـدَادُ دَمُ!

يَـوْمَ الـتَـبَـارِي، إذا فُـرْسَـانُـهُ انْـتَـهَـرَتْ
دُهْـمـاً، فَـإِنْ هـو إلاَّ الـرأسُ والـحَـكَـمُ.

مـا كـانَ "نـابِـغَـةٌ"، لـو كـانَ عَـصْـرَئِـذٍ
فـي حَـضْـرَةٍ مِـنْـهُ؟ هَـلاَّ تَـنـطِـقُ الـرِّمَـمُ!...

بَـحْـرَ الـثَـقَـافَـةِ، لُـجَّ الـعِـلْـمِ، يـا جَـبَـلاً،
إِلَـى ذُرَاهُ يَـحُـجُّ الـمَـجْـدُ والشَّـمَـمُ،

لِمْ قالَ، قَبلاً، سَعيدٌ: كنتَ تَهوي عُلاً؟!
دَأْبُ العِظَامِ، إِلَيْهِمْ تَصْعَدُ القِمَمُ!

هَلْ غَابَ عنكَ بَيَانٌ أَو ضُرُوبُ حِجىً؟
أَتَمَمْتَ مَعْرِفَةً، أَصْغَتْ لكَ الأُمَمُ.

حَاضَرْتَ في شَرْقِنَا، في الغَرْبِ مَقْلَبِهِ،
في كُلِّ صُقْعٍ، أَهَلَّ العُرْبُ والعَجَمُ؟

هُزُّ المَنَابِرَ يا ابنَ الدَّيْرِ، يا قَمَراً
تاجُ البَلاَغَةِ في فَوْدَيْهِ، والنُّجُمُ!...

وَسَمْتَ عَصْراً بِوَشْمِ الفِكْرِ مُشْتَمِلاً
بالظَّرْفِ والنُّبْلِ، أَنتَ الكأسُ والجَمَمُ!

لمَّا سَمِعْتُكَ تَشكو، مَرَّةً، وَجَعاً
ضَامَ البلادَ، عَرَاني مِنكُمَا سَقَمُ.

"إذا رأيتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بارِزَةً"،
لا تَخْشَ شَرّاً، فَلَيْثُ "الدَّيْر" يَبْتَسِمُ!

ذَاكَ النَّبِيُّ!... فما سَيْفٌ وَدَوْلَتُهُ
إذْ أَنْتُمَا دَوْلَةُ الآدابِ، مُعْتَصَمُ؟!

يَمضي الملوكُ، وَيَبْقى الخالدونَ بها
دنيا، فَخُذْ صَوْلَجَاناً عَرْشُهُ الكَلِمُ!

"بـغـدادُ حـاضـرةٌ"؟ بَـيـروتُ ضِـرَّتُـهَـا!

لَـوْ مُومِـئٌ مِـنْـكَ طَـرْفٌ، بايَعوا، حَسَمُوا!

مِـلْـفَـانُ دِيـنٍ وَرُؤْيَـا، ذَاخِـرٌ طُـرَفـاً،

مـازِلْـتَ أَعْـظَـمَـهُـمْ شَـأْنـاً، وإنْ عَـظُـمُـوا!

شَـهْـمُ الشُّـعُـورِ، وَعَـقْـلٌ رَاجِـحٌ، أَبـداً،

يـا جَاحِـظَ الـعَـصْـرِ، لَـمْ يُشْـبِـعْكُـمَـا نَهَـمُ!...

مَـوْسُـوعَـةَ الأَدبِ، الـتـاريـخِ، أَرْحَـبَـهُـمْ

عِـلْـمـاً وصَـدْراً!... هَـزَارٌ أَنْـتَ! هُـمْ بُـكُـمُ!

إنْ أَفْـصَـحُـوا وَصَـفَـتْ نِـيَّـاتُـهُـمْ، ذَكَـرُوا

أَنْ أَنْـتَ غَـيْـثٌ، عَـلَـيْـهِـمْ كَـمْ لَـهُ نِـعَـمُ!

يَـجْـفُـو الـكِـبَـارَ، وَيَـسْـتَـعْـدِي عَـمَـالِقَـهَـا،

غِـرٌّ وَوَغْـدٌ هَـزِيـلُ الـنَّـفْـسِ، أَوْ قَـزَمُ!

وَيَـوْمَ سَـادَ عـلـى أَوْقَـافِ جـامِـعَـةٍ،

أَمْسَى الرئيسَ: هو الراعي، هُمُ غَنِمُوا!...

مِـحْـرَابُـهُ رَابِـضٌ فـي قُـدْسِ هَـيْـكَـلِـهِ،

لَـوْ مَـدَّ رَاحَـتَـهُ، "فـالـرُّكْـنُ يَـسْـتَـلِـمُ"!...

رَبَّى مُرَبِّينَ لِلأَجْيَالِ، سَلَّمَهُمْ
دَرْبَ العُلَى شَرُفُوا، أَثْرَاهُمُ كَرُمُوا!

هو المليكُ على العَرْشَيْنِ في وَطَنٍ:
تاجٌ على رأسِهِ لِلْعِلْمِ، والعَلَمُ!...

إذا تَرَنَّمَ غُصْنُ الأَرْزِ، مَادَ غِوىً،
لبنانُ يَذْكُرُهُ، ما هَلَّتِ الدِّيَمُ!

واليَوْمَ، في صَرْحِهَا، راحَتْ تُكَرِّمُهُ
أَخْبَارُ دِينٍ عَلَى اسْمِ الحَرِيمِ ارتَسَمُوا،

فالدَّيْرُ باقٍ عَرِيفاً، والذُّرَى أَجَماً،
مِنْ تُرْبِهَا يَنْبِتُ الأبطالُ والعُظُمُ،

والمَرْيَمَاتُ رَأَيْنَ القَبْرَ، لا حَجَراً...
والمَرْيَمِيُّونَ دَوَّوْا: يُحَطِّمِ الصَّنَمُ!...

إنْ ماتَ ظَلَّ لَهُ رُوحانِ، لا جَسَدٌ،
بالعَقْلِ نَبْضٌ، وسِرُّ المَوْتِ مُكْتَتَمُ:

رُوحٌ سَمَتْ بِسَديمِ الكَوْنِ تَرْقَبُهُ،
رُوحٌ هنا، تَرْتَدِي أَثْوَابَ مَنْ لَهُمُ

خَلَّى فُؤادٌ كُنُوزاً ليسَ يَكْنِزُهَا
إلاَّ السَّرَاةُ... سِوَاهَا التُّرْبُ والحُطَمُ!

لُبْنَانُ "قِبْلَتُهُ"، الأَمْجَادُ شِرْعَتُهُ
والمَكْرُماتُ... إلَيْهِ تَشْخَصُ الذِّمَمُ،
مَنْ قَالَ مَيْتٌ؟ فَمَا الأَمواتُ إلاَّ هُنَا...
ما زَالَ يَرْمُقُنَا، فَاغْرُبْ بِهَا العَدَمُ،
هذا الذي غابَ حَيٌّ في ضمائِرنا،
وهو الخِتَامُ لأَهلِ الفِكْرِ إنْ خُتِمُوا...

مروان حماده
وزير الاقتصاد والتجارة

إنّه لشرف عظيم لي أن أدعى إلى هنا في رحاب هذا الصرح العلميّ الكبير، في دير القمر الحبيبة، بين أهلي وأحبّائي لأتحدّث ببضع كلمات عن رجل كبير من قياس العمالقة، اسمه فؤاد افرام البستاني. فعندما شرّفني أخي وصديقي حارث، بالدعوة إلى إلقاء كلمة في المناسبة، لم أتردّد لحظة واحدة. ولم يكن ذلك بدافع من الواجب تجاه من أحبّ، ولا لغاية محسوبة، وإنّما لسببين اثنين:

العاطفة التي تجمعني بالبيت، يا ابن العمّ، يا حارث، وهي عاطفة البعقلينيّ تجاه الديريّ، عاطفة الشوفيّ تجاه الشوفيّ، وعاطفة التواصل والمحبّة الضاربتين في التاريخ... تاريخ العائلتين وتاريخ المنطقة وتاريخ لبنان؛ فكان شعوري أنّني إنّما أتحدّث عمّا يخصّني مباشرة، وعمّا يثير فيّ مشاعر الاعتزاز.

أمّا السبب الثاني في مسارعتي إلى القبول، فكان بدافع الرغبة في التأكيد على أنّ ما خلّفه فؤاد افرام البستاني لنا ولوطننا ولأمّتنا، نعم لأمّتنا العربيّة، من ثروة فكريّة، ومخزون ثقافيّ، وعلوم رفيعة - ما خلّفه لنا - طغى على طبع الشخص الرجل، ومنحه إجازة لأن يكون فعلاً رجل عصره، ورجل إنسانيّة يتخطّى الحدود والحواجز، وقضى على رواسب المراحل الصعبة التي مرّ فيها لبنان. فقد كان فؤاد افرام البستاني القيمة الانسانيّة والثقافيّة الكونيّة، أكبرَ وأبقى. وكان في جذوره الأصيلة، وفي انتمائه الثقافيّ العربيّ أقوى من المحن

والخلافات. فقد عاد فؤاد افرام البستاني إلى الأصول التي لم يغادرها يوماً، إلى البلدة الحبيبة، إلى الجبل العزيز، إلى العروبة الحضارة والثقافة والانتماء. ففي النهاية، كلّنا يعود إلى الأصول، وإلى الينابيع، وهي واحدة لا تتجزّأ، وعُراها لا تنفصم.

سيّداتي سادتي

أيّها الحفل الكريم

لم يكن فؤاد افرام البستاني الرجل الموسوعيّ، في أيّ وقت من الأوقات، ملكاً لعائلة شأنه في ذلك شأن البساتنة الكبار، ولا هو كان ملكاً لمنطقة، ولم تصادره طائفة، ولا حتى جبهة، لأنّ الموسوعيّ كان وسّع دائرة معارفه وعارفيه، والمعجبين به، والمتلقّنين على يديه ومنه، إلى ما هو أبعد وأسمى من سجون الانتماءات الضيّقة التي أراد البعض زجّه فيها، وتحجيمه عبرها.

ما من شكّ في أنّ الحديث عن فؤاد افرام البستاني يطول كثيراً. وما من شكّ في أنّ الحديث عن فؤاد افرام البستاني يتشعّب كثيراً؛ يغوص في أعماق نفوسنا، وفي صلب ضمائرنا، ووقلوبنا؛ ويرتبط بقرابتنا؛ أليس كذلك يا أولاد العم؟! ويتقاطع مع نقاط التقائنا، ومفاصل خلافاتنا... لقاؤنا دائماً حول الشخص، ولو كان اختلافنا أحياناً حول مواقفه. ونحن اليوم في دير القمر الحبيبة، جارة القمر، وجارتنا نحن، لا لنقوّم عملاقاً، ولا لنقيس حجماً، ولا لنزن إبداعاً، ولا مكانة. فالعملاق هو هو، والحجم هو هو، والابداع والمكانة هما موضع إجماع الجبل، وإعجاب لبنان، واعتزاز العرب. فهو ليس في حاجة لأن ينتزع منّا اعترافاً بتفوّقه. لقد كان فؤاد افرام البستاني، ولا يزال بعد رحيله، مدرسة للأجيال في المعرفة، والصلابة، والجديّة، وفي تجاوز الزمان والمكان.

أيّها الحفل الكريم،

ما من شكّ في أنّ ثمّة كثيرين ممّن هم أكثر أهليّة منّي للتبحّر في شخصيّته، وفي دراسة نتاجه الفكريّ الكبير والمتنوّع والغنيّ. ولكنّي أردت أن أغتنم الفرصة لكي أحاول أن ألقي بعض الضوء على الصورة التي عكسها الراحل في أوساط لم تكن بالضرورة على تواصل إيجابيّ مع مواقفه، ولاسيّما في مرحلة الحروب التي عصفت بلبنان. وأردت أن أقول إنّ الرجل كان بالنسبة إلى الذين اختلفوا معه حول مواقفَ له أنّهم ما من مرّة إلاّ واعترفوا له بالمكانة السامية بين الناس والعلماء. وما من مرّة حاولوا أن ينتقصوا ولو ذرّة واحدة من قيمته. فقد ظلّ فؤاد افرام البستاني بالنسبة إلى الجميع مصدراً أساسيّاً في التحصيل العلميّ، وفي المعرفة، وفي الاجتهاد في الثقافة والفكر السياسيّ، والتأريخ والنقد الأدبيّ. ومن هنا، فإنّ السياسة التي لا تحتمل إجماعاً، لم تهزّ الاجماع حول عقله، وعلمه، واجتهاده، ونتاجه. هكذا نظر الكثيرون إلى العملاق بما يتجاوز المرحليّة والآنيّة. فقد علّمنا، هو، احترام الرأي الآخر، فالعودة ليست جغرافيّة بقدر ما هي نفسيّة. مهمّ أن نعود إلى القرية، ولكن الأهمّ أن نعود إلى الذات ثمّ بعضنا إلى بعض.

سيّداتي سادتي

أيّها الحفل الكريم

لقد كان فؤاد افرام البستاني علماً من أعلام الفكر والأدب والتأريخ. كان ذلك باعتراف أقرانه من المحيط إلى الخليج. وكان الرجل عالماً، دارساً، متبحّراً، ومتفانياً في سبيل العلم والمعرفة. هذا أمر أجمع عليه الناس.

ولكنّ فؤاد افرام البستاني لم يكن فقط رجل الروائع، ولا رجل دائرة المعارف، ولا الأستاذ الجامعيّ، وإنّما كان على صلة بالحياة السياسيّة في وطنه. هذا الجانب من فؤاد افرام البستاني واكبته، ولكن من الجانب الآخر من المسرح السياسيّ في أصعب الظروف التي مرّت بلبنان. ولذلك، أردت أن أقول لكم هنا، من على هذا المنبر الكبير، أنّني بقيت أتوسّم في صورة العملاق فؤاد افرام البستاني صورة العالم، المفكّر، المؤرّخ، الموسوعيّ، والانسانيّ. كبير من هذه الدوحة الكريمة، وكبير من الدير الحبيبة، وكبير من الشوف القلب النابض، وكبير من لبنان الرسالة، وكبير من كبار العرب حضارة وثقافة.

هذا هو فؤاد افرام البستاني الموسوعيّ، الانسانيّ، الشامل كما يراه مروان حماده، كما يحترمه وكما يحبّه.

عِصام كرم
نقيب سَابق للمحامين

ارتقى من واحة المثقّف إلى رتبة العارف

ما قُسط لي أن أكون تلميذاً في مدرسة علّم بها فؤاد افرام البستاني.

ولكنْ، مَنْ قال إنّ المدرسة هي دارٌ يربع فيها تلاميذ بمقاعد يستمعون معلّماً يكرز عليهم بالمعرفة؟

المدرسة أكبر بكثير. والمعلّم.

المسيحيّة مدرسة ويسوع المسيح معلّم. والإسلام مدرسة ومحمّد بن عبد اللّه ابن عبد المطّلب معلّم.

وإذا نزلنا من مدارس السماء إلى مدارس الأرض... مدارس الأدب... قلنا إنّ الاقتعاد مدرسة وأبو حيّان معلّم. والمذهب الشاميّ مدرسة وديك الجنّ معلّم. والكلاسيكيّة مدرسة وبيار كورناي وجان راسين معلّم. والرومانطيقيّة مدرسة ولامرتين وشاتوبريان معلّم. والرمزيّة مدرسة وستيفان مالارمي معلّم. والسورّياليّة مدرسة وأندري بْروتون معلّم.

فؤاد افرام البستاني... تلميذ المعلّم نعّوم... ابن النهضة الثانية... أطلّ على الينابيع إطلالة الطمّاح المتعافي. فأقبل عليها يعلّ وينهل ولا يرتوي حتّى اخضلّت المناهل بمواهة الأصَلاء... وحتى استوى، هو، فؤاد افرام، في المطلع البهيّ من الأمداء الفساح.

هذا المثقّف بلا حدود... تملأّ من ثقافته، وهضمها، وارتقى بها من مدارج الثقافة إلى مراتب المعرفة... حتّى بات عصيّاً على أن يعرّف به بـ "الروائع" في أدب العرب وبـ "دائرة المعارف" يحاول إكمالها لعلّه يتجاوز عبارة "عثمانيّة"... العبارة التي وقف عندها نسيب ونجيب إبنا المعلّم بطرس مع سليمان البستاني.

المدى الأرحب كان مداه. والأُفق الأوسع كان ملعبه... حتى بات أشمل بكثير من أن يُختصر بكتاب أَلّفه، أو عبر موسوعة توفّر عليها... مثلما لا يُختصر فيكتور هوغو بأنّه صار خطيب اليسار، ولا إميل زولا بأنّه صاحب "إنّي أتّهم".

هذا العارف، الغارف من العطايا، كان السنين السِّمان تتدارك السنين العجاف عند الطالبين.

مرّةً، وكنت طلعت حديثاً من قراءة أرتور كونت عن "المغامرة الأوروبيّة من مينوس حتّى لويس السادس عشر"، سألته: لماذا، في رأيك، بنى قسطنطين، القسطنطينيّة حيث ابتناها؟ فأجاب لا يتردّد: لأنّه شاء أن يُبقي الصلة قائمةً بين البحر المتوسّط والبحر الأسود.

ولو كان بقي في الحياة، كان قال، ربّما، إنّ "الشرق الأوسط الكبير" كان رؤيةً بريطانيّةً في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين. وكان تَساءل، ربّما، هل يكون "المحافظون الجُدُد" في رؤيتهم إلى هذا الشرق، وارثين وضحايا لأوهام بريطانيي العقد الثالث من القرن العشرين؟

وكان، هذا العارف، صاحب نكتة قارسة، موجعة، لا تطلع إلاّ من لَدُن الأذكياء المرهفين.

ذهب، يوماً، يزور كميل شمعون. فقُدِّمت إليه القهوة. فشرب يُحدث صوتاً إذ يضع حرف الفنجان بين شفتيه. فاستغرب كميل شمعون: يا فؤاد، هل ناسٍ أنت أنّي رئيس الجمهوريّة، فتشرب القهوة عندي على هذا الشكل؟ فضحك. وأجاب: لا. ما نسيت أنّي في زيارة رئيس البلاد. لكنّي ما نسيت كذلك أنّي أتقنْ لغة الضاد. العرب، يا فخامة الرئيس، ما قالوا "شرب" القهوة. بل قالوا "رشف" القهوة.

ويوماً، ذهب على موعد مع كميل شمعون بعد عهده بالرئاسة. فاستقبلته سكرتيرة بشعة وعلى قدْر قليل من الفهم. فقالت: "أعتذر عن فخامة الرئيس. وصل متأخّراً من غداء دُعي إليه. خمس دقائق ويكون في استقبالك. كيف تشرب قهوتك؟" فالتفت إلى وجهها وقال: "اعمليها مِثْل وجهك". فارتبكت. ولم تُدرك. وفيما هي على هذه الحال، أطلّ كميل شمعون. فألفاها على لبكتها. فسألها: "ماذا قال لك"؟ قالت: سألته كيف يشرب قهوته؟ فقال: "اعمليها مثْل وجهك". فابتسم. وقال لها: "اذهبي واعمليها مُرّة... مثل لسانه".

لَكَم كان يعرف هذا العارف!

كان يعرف دور دير القمر في حكم جبل لبنان، وهي، منذ الإمارة، عاصمة الجبل.

وكان يعرف أنّ الحكم استوى في ناديها وانطلق من ناديها، وأنّ القرار... هي مقتعَدُه. أوليس هذا ما كان في الخمسينات من القرن الماضي؟

ويا دير القمر!

يا عاصمة الأمراء ومُطلقة الطلاّعين!

يا من رفعتْ شهادة الدم إلى مصافّ الشهادة للحقّ الوطنيّ وللوفاق الوطنيّ!

يا مَن أحبّت الرهبانيّة المريميّة حتى صار أبناؤها كلّهم من رهابينها!

يا مَن ترتفع على الحساسيّات تُطلعها المواسم والمناسبات لتتركّز في المناخات الراقية تعالج، انطلاقاً منها، الشأن الكبير... فتفتدي وحدة الوطن... وترفض "ثقافة الموت"، كما في مقال البابا يوحنّا بولس الثاني، ومعه البطرك المارونيّ مار نصرالله بطرس صفير، لأنّ فيها الانتقال السريع من سلاح اللغة إلى لغة السلاح...

يا دير القمر!

يا بنت الأصالة الشوفيّة!

يا منبت الغُرّ الميامين!

قولي لهم إنّ الأوطان لا تُبنى بردّات الفعل. وإنّ عقدتي الغبن والخوف عطّلتا القرار اللبنانيّ منذ الإمارة... وما تزالان منذ سنة ١٩٤٣ ... فلا يجوز أن يخاف المسيحيّ. ولا أن يُغبن المسلم. هكذا كانت حالنا... فصارت، والعقدتان تعايشان النفسيّة المسيحيّة في هذا الزمان...

قولي لأهلنا المسلمين: لا تخطئوا مثلما أخطأنا، فتقابلوا الخطأ بالخطأ. لأن ما بالأخطاء يكون تدارُك الأخطاء. ولا بالأخطاء تكون الكفّارات عن الخطايا.

كلّنا أبناء لبنان. وكلّنا أبناء الحريّة والديموقراطيّة وحقوق الإنسان في تقرير مصيره رافضاً عاصفة الإرهاب، متحرّراً من الأحاديّة... انطلاقاً من لبنان وصولاً إلى القدس وبغداد، ومن ثَمّ إلى كلّ مصر يعايش توقاً إلى الهواء الطلق وصبوةً إلى التنفّس بملء الرئتين!

ويا دير القمر!

من لنا، مثل فؤاد افرام، بمن يتابع المسيرة، فتكون لنا بحور تحتوي التراث الفخم روائع ودائرات معارف تُحكى فيها حكاية العرب في معاجم الغرب كمِثْل ما تُحكى حكاية الغرب في معاجم العرب؟

بعد ١١ أيلول، قيل في مواطن كثيرة: كلّنا أميركيّون!

وبعد ١١ آذار، قيل في المواطن نفسها: كلّنا إسبان!

فمتى يقال في تلك المواطن إيّاها "كلّنا لبنانيّون"... "كلّنا عرب"... وقد افْتُدحنا، في لبنان وفي فلسطين وفي العراق، بما هو أشدّ وأدهى من ١١ أيلول ومن ١١ آذار؟

الإرهاب تَعولَم. فهل تتعولم العدالة والمحبّة؟

ويا دير القمر!

أنتِ والفخر نظيران!

فاخرتِ بأنّكِ أطلعتِهم. وفاخروا الدنيا بأنّهم طلعوا منك!

ألاّ... نِعْمَ الأمومة ونِعْم البنوّة.

هكذا تتلاقى المآثر ويتعانق الأنداد!

... ويا فؤاد افرام!

أرأيت كم تعلّمتُ منك وكم أخذت عنك؟

والله! ما تكريمٌ، في مئويّتك، مهما غَلا، بكثيرٍ عليك!

د. حارث البستاني

كرّسَ حياتَهُ بكاملِها للبحثِ والدراسةِ والتأليفِ والتربيةِ. عَمِلَ جاهداً حتى آخرِ رَمَقٍ لتنشئةِ الشباب اللبنانيّ. ناضل بدون هوادةٍ في سبيل سيادة لبنان وإعلاءِ شأنِهِ، وغادرنا صبيحةَ يومٍ باكٍ ومصقعٍ. شيخٌ جليلٌ هَوَى لِينضمَّ إلى قافلةِ عظماءِ القرونِ الغابرة.

كان جليلُ الجبلِ ينتمي إلى سُلالةِ ملوكِ الآدابِ العربيّةِ والإسلاميّةِ. يعمل، بعدَ أنْ تحرّرَ مِنِ التزاماتِهِ الجامعيّةِ، على إعادةِ صِياغةِ وإنجازِ مخطوطاتِهِ التي تجاوزتْ بالعددِ مؤلّفاتِهِ المنشورة.

حياتُهُ، بحثٌ دائمٌ عن المعرفةِ الأصيلةِ والشّفافيةِ المُطْلَقَةِ وعظمةِ لبنانَ، حتّى وصلتْ به إلى عَتَبَةِ الموتِ المشرقِ المُؤْذِنِ برؤيةِ الخالق.

لم يُغلِقْ باباً يوماً أمامَ طارقٍ، أشيخاً كان أمْ فتيّاً. يستقبلُ الجميعَ بوجهٍ بشوشٍ ويُصْغي إليهم. فكلُّ رأيٍ بالنسبة إليهِ جديرٌ بأنْ يُؤْخَذَ بعينِ الاعتبارِ، ولم يبخَلْ يوماً بإعطاءِ فكرةٍ أوْ بتوجيهِ نصيحةٍ لطالبها.

كان فضولُهُ المسكونيُّ، وسَعَةُ معرفَتِهِ وعشقُهُ للبنانَ ثالوثاً يُضْفي على صوتِهِ نبرةً خاصّةً، فتأتي كلماتُهُ في هذه المواضيعِ رنّانةً ومصقولةً.

وإذا بالذكرياتِ تعودُ به إلى أيّامِ طفولتِهِ، إلى هذه "المرّةِ الأولى" التي كانت تستنبطُ من صميمِ قلبِهِ أُصولَهُ القرويّةَ والعائليّةَ، ولطالما كانت موضوعَ فخرِهِ واعتزازِهِ.

كان هذا اللبنانيُّ العتيقُ يستَذْكِرُ فصولاً معيّنةً من حياتِهِ الخاصّةِ أو المهنيّةِ، فيستعيدُ بلا تردُّدٍ أحداثاً ووجوهاً غَبَّرَ الزمانُ ملامحَها، وقد عايش هذا الامتزاج الرائع بين الإنسانِ والوطنِ الذي أَضفى على أَعمالِهِ هذا الرونقَ الفريدَ الذي قلّما نراهُ اليومَ في معاصرينا.

اندلعتِ الحربُ، فسَلَبَتْ عشرين سنةً من حياتِهِ. بقيَ وفيّاً لحبِّ الوطنِ مهما كلَّفَهُ الأمرُ، جَسوراً، واثقاً بِنَفْسِهِ ومترفِّعاً عن كلِّ المغرياتِ، بعيداً عن التودُّدِ والمجاملةِ والمؤامراتِ والنّفاقِ؛ فكان شاهداً مرغماً يومَ ضاقَتْ مقاليدُ الوطنِ، فرحل وفي قلبِهِ حسرةٌ: عظمةُ لبنانَ المنهارة.

خَلَتْ كُلُّ مؤلَّفاتِهِ ومحاضراتِهِ ومقالاتِهِ من المآرب السياسيّةِ والطَّمع بالسُّلْطةِ. إنّما حفلتْ "يوميّاتُهُ" بالمقاطِعِ الساخرةِ اللاَّذعةِ وهو يَسْرُدُ وقائعَ الحربِ التي شُنَّتْ على لبنان. فسلَّطتِ الأَضواءَ على الأَيادي الخفيّةِ وعلى أطماعِ ونفاقِ الغرباءِ وعلى بعض القادةِ الذين لم يستخلصوا مع الأسف أيّةَ عِبَرٍ منها.

كما شَجَبَ بعنفٍ فسادَ النظامِ السياسيِّ وتدهورَ الأَخلاقِ العامَّةِ والمشاعرِ بغضب أَنبياء السنينَ الغابرةِ، من دون أَنْ يحصلَ على أَيَّةِ ردَّةِ فِعْلٍ من السّاسةِ والسِّياسيين. فأُلصقتْ به أبشعُ التُّهمِ والنعوتاتِ من قبلِ أَعداءِ لبنانَ ما عدا تهمةَ الانهزاميّة.

وشجبَ حكمَ الدُّمى وفسادَ القادةِ المتّكئينَ على أكتافِ الغرباءِ من كلِّ صوبٍ، فنادى جليلُ الجبلِ بفضائل الأُمّةِ العريقةِ، فلم يمتثلْ أَحدٌ.

تميّزت ريشتُهُ بالظرفِ حتى عندما كان يغمسُها في حبرِ المأساةِ والمعاناةِ، وقد أنتجتْ شهادةً قاسيةً نابضةً بالحياةِ حينَ خيّمَ الموتُ الأخلاقيُّ على لبنان.

انفردتْ كتاباتُهُ السياسيّةُ بالدهشةِ والسخطِ والاشمئزاز والإعجابِ في آن، وقد اكتظّتْ بالكلماتِ المتجذّرةِ في نسيجِ اللغةِ، فقرأها الناسُ بالانفعالِ نفسِهِ لأنّها ولدتْ منه.

جاءت هذه الأعمالُ تُبْرِزُ رفضَ مؤلِّفِها المشاركةَ في أكبرِ عمليّةِ انحطاطٍ لشعبِنا؛ إنّما هذا الرفضُ لا يجوزُ أنْ يبرّرَ دَفْنَ كتاباتِهِ معه.

أُقيمتْ له جنازةٌ وطنيّةٌ بتاريخِ ٢ شباط ١٩٩٤ في دير القمر، وكان يوماً ممطراً وبارداً يلفُّهُ الضبابُ، فخيّم سكونٌ حزينٌ ووجومٌ على عاصمةِ الأمراءِ؛ وأدركَ الجميعُ أنّ صفحةً مجيدةً من تاريخِ لبنانَ قد طُويتْ، مستعيدين بالذاكرة السنواتِ المأسويّةَ التي عايشوها، فشعروا بأنّ جزءاً من حياتِهم قد ضاعَ إلى الأبد.

تميّزت المراسمُ الدينيّةُ بالخشوعِ والوقارِ على بساطَتِها. واستمع الرسميّونَ والعامّةُ إلى الرقيمِ البطريركيِّ الذي عكسَ حقيقةً تاريخيّةً ساطعةً.

فالرجلُ الذي كان مُسَجّىً أمامَنا قد خطّ للشعبِ اللبنانيِّ الطريقَ المؤدّيَ إلى الشرفِ والعنفوانِ، والذي غالباً ما يكون ثمنُهُ أغلى من ثمنِ النصرِ من وجهةِ التاريخِ والقرونِ المتراكمةِ. هذا الرجلُ اقترن شخصُهُ بتاريخِ لبنانَ المستقلِّ وبمصيرِهِ.

في ذلك اليومِ من أيّامِ الشتاءِ المكفهرّ عادَ هذا السيّدُ الكبيرُ والمفكّرُ المثقّلُ بالسنينَ إلى أرضِ أجدادِهِ، أرضِ السلامِ والحريّةِ والتناغُمِ؛ فاحتلّ مساحةً صغيرةً من أرضِ لبنانَ حيث يستطيعُ أنْ يرقدَ ويرتاحَ بعيداً عن ضوضاءِ هذا الوطنِ المتألّمِ من جرّاء الحروبِ القذرة، في هذه البلدةِ التي عاش فيها وَسْطَ التاريخِ ومخطوطاتِهِ ومن الصعبِ الفصلُ بينهما، إذْ ساهمَ كلٌّ منهما منذُ أكثرَ مِنْ تسعين عاماً في صُنْعِ وصياغةِ تاريخِ الآخر.

كان وقْعُ الاضطراباتِ السياسيَّةِ والثقافيّةِ كثيرَ التأثيرِ في حياتِهِ، إنّما آثر البقاءَ بعيداً عن هؤلاءِ الذين يحرّفونَ كتابةَ التاريخِ كما يحلو لهم ويتناسَوْنَ الحقيقةَ. وبالرّغمِ من مساهمتِهِ في صنعِ تاريخِ وطنِهِ لم يُبْدِ أيَّ استعدادٍ لمزاولةِ السياسةِ، لا سيّما هذا النوعَ من السياسة. حينما نسترجعُ بالذاكرةِ ونفكّر ملياً بالمِحنِ التي أصابتْ شعبَ لبنانَ والتي ما زالتْ تلاحِقُهُ، لا يسعُنا إلاّ أنْ نَنحني احتراماً أمامَ رجلٍ عاش حرّاً طَوالَ حياتِهِ، ورفَضَ كُلَّ الضغوطاتِ والعروضاتِ المغريةِ التي كانت تحاولُ الالتفافَ على عنفوانِهِ من كلِّ حَدْبٍ وصوبٍ، من الدّاخلِ ومن الخارجِ. هذا الرجلُ سوف يبقى اسمُهُ منقوشاً بحروفٍ من ذهبٍ في سجلاّتِ التاريخِ كوميضِ نورٍ مشعٍّ في هذا الزمنِ الرديءِ والمظلم، وكدليلٍ ساطعٍ على انتصارِ الايمانِ والحقّ.

عالج تاريخَ لبنانَ كما يعالجُ مسألةً عائليّةً لمعرفتِهِ الوثيقةِ بكلِّ ما هو لبنانيٌّ، وبسبب تعلّقِهِ بالقيمِ الأخلاقيّةِ التي لم تعدْ متداوَلَةً. وقد تعايَشَ بصعوبةٍ مع نهايةِ الألفيةِ الثانيةِ التي أصبح يُفَسَّرُ فيها التلويحُ بالعلم اللبنانيِّ خلالَ مظاهرة شعبيّة بمثابةِ عملٍ تحريضيٍّ.

إنّ أسطورتَهُ مكوّنةٌ من حنينٍ إلى عالَمٍ طُوِيتْ صفحاتُهُ المشرقةُ ليحلَّ محلَّهُ زمنُ الحربِ والاحتلالِ، ومن أملٍ متجذّرٍ في كلّ حواسِّهِ لطالما أرادَ أن يبثَّهُ في الأجيالِ الصاعدة.

لقد أُسدلَ الستارُ. لن يعودَ جليلُ الجبلِ إلى ليوانِهِ. ولم يبقَ لنا إلاّ أن نتغنّى ببعضِ الأبياتِ الشعريّةِ الرنّانةِ. لقد انتهى عصر العمالقةِ.

يقول المستشرق جيرار تروبو: "ليس من الصدقِ أن يكونَ مؤلّف وناشر "مجموعة الروائع" وموسوعة "دائرة المعارف" الضخمة من الطائفة المارونيّة. فهو بالفعل وريثُ سلالة متواصلةٍ من العلماء الموارنة الذين عملوا بجهدٍ كبير منذ القرن السابعَ عشَر على نشرِ الثقافةِ العربيّةِ، المسيحيّةِ منها والإسلاميّة، في بلاد الغرب".

ذكريات

المشاركون: النقيب محمّد البعلبكي

د. ألبير ساره

هنري زغيب



محمّد البعلبكي
نقيب الصحافة

للذكريات معه طعمُ الحنين إلى تلك الأيّام، بما كان لَها علينا وما كان لنا عليها من أحداث تَجعل تلك المرحلة من تاريخ لبنان عابقة بِما نتمنّاه يعود، لو يعود، بِكلّ ما كان فيه من طيبةٍ وبركةٍ وبيادر عافية.

كنّا في المقاصد، وكان على الضفّة الأخرى من التفكير الوطنيّ الواحد، شخصٌ مثيرٌ للجدل، يَحترمه أخصام تفكيره بقدْر ما يَحترمه مريدوه، وهو بين الفريقين عالِم جلُودٌ، وبَحّاثةٌ طُلَعَة، يرفد معهد الآداب الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة، ويرفد مَجلّة "المشرق"، ويرفد الشباب المُطّلبين عليه من واسع علمه وغزير معرفته.

وكان هو يبقى على قناعاته، راسخاً في معتقده العلميّ والتاريخيّ والأدبيّ، موسوعةً من رَحابةِ قولٍ ووساعةِ بَثٍّ، قلمُه طاقةٌ لا تتعب، وفكرُه دنيا من آفاق وِساع، وما يقوله، ولو أثار جدلاً، يظلّ مرجعاً إليه يُعاد.

أذكرُها تلك الأيّام، وأذكر كم نَهلنا من "الروائع" مادّةً مدرسيّة لم تكن ضمن برامجنا المدرسيّة، لكنّها كانت ضرورةً لها ولنا في اكتناز ما كان علينا أن نعرفه من ذخائر الأدب العربيّ.

وجاءت "دائرة المعارف"، يكمل بها العمل الجبّار الذي بدأه البستانيّ الأوّل، البطرس الكبير، فإذا به يوليها من وقته وجِدّه ما يعجز عنه فريق كامل من الباحثين.

وحين كنّا نتحلّق حوله في جِلساته وحلقاته، كان يمدُّنا بالوفير الغنيّ من الأدب والتاريخ والفكر، حتّى لكأنّ الجلوس إليه حَجٌّ إلى واحدٍ من أئمّة الأيّام الخوالي.

ذات يوم، وكان في زيارة صديقه القاضي بولس سلامة في زحلة، عرّفه القاضي سلامة، وكان شاعراً كذلك، بشاعر فتى في زحلة تقدّم من الأستاذ فؤاد بثقةٍ وشموخ. طلب الأستاذ فؤاد أن يُسمعه الفتى شِعراً، ففعل الفتى. سأل الأستاذ فؤاد: "وهل عندك الكثير من هذه القصائد؟". أجاب الفتى: "عندي مجموعة كاملة، وعندي مسرحيّة شعريّة جاهزة". طلب الأستاذ فؤاد أن يراها، فأرسلها إليه الفتى الزحليّ بالبريد. وحين قرأها الأستاذ فؤاد وأعجبته، أشركها في مسابقة الجمعيّة الأدبيّة يومها، ففازت المسرحيّة بالجائزة الأولى، ونشرها الأستاذ فؤاد في مجلّة "المشرق"، فاشتهرت واشتهر صاحبها من يومها، ولا يزال صاحبها حتى اليوم يعترف بفضل الأستاذ فؤاد افرام البستاني عليه.

تلك المسرحيّة كانت "بنت يفتاح"، وذاك الفتى الزحليّ هو سعيد عقل.

وما أكثر الـ "يفتاحات" التي اكتشفها الأستاذ فؤاد! وما أكثر الذين، مثل سعيد عقل، أضاء على مواهبهم واحتضنها، أُستاذاً ومرشداً وراعي جيلٍ كامل من الأدباء الذين يدينون، مثل سعيد عقل، بما رفدهم به ذاك الموسوعيّ الكبير!!.

في مئويّته اليوم، ننحني لذكراه، كي نشعر أنّنا لا نزال هناك، في تلك المرحلة المضيئة العافية، العابقة بما نتمنّاه يعود، لو يعود، بكلّ ما كان فيه من طيبةٍ وبركةٍ وبيادر عافية من أيّام لبنان.

وحين كان على رأس الجامعة اللبنانيّة، وكنّا إليه نَجلس، وبه نَجتمع، ومنه نطّلع، كان في عزّ زخمه وحماسته لإنشاء جيل لبنانيّ جديد راغب في العلْم، ضالع في الآداب على صورة الجيل الذي منه خرج هو، جيل الكتاب والمعرفة الحقّة.

قلّما أعرف من ليس له معه حكاية أو فصلٌ أو حدث، ذاك الذي في إثارته الجدلَ حوله، ظلّ كالكهنة الأغارقة القدماء، يَختلف الناس إليهم ولو اختلفوا عليهم.

فؤاد افرام البستاني، هذا الموسوعيّ الذي نَحتفي بِمئويّته اليوم، يقيناً لو أمدّ اللّه بعمره، وعُمّر إلى المئة أو نَحوها، كما نشهد من بعض أترابه، لكان لا يزال في التأليف والبحث والقراءة والتعليم الذي امتهنه رسالةً لا حرفة، فإذا بطلاّبه يغدون اليوم أساتذة ومؤلّفين وذوي شأن عالٍ في بناء لبنان.

ومن ذكرياتي عنه، أنّني كلّما كنتُ أقصده إلى الجامعة اليسوعيّة حيث يدرّس في معهد الآداب الشرقيّة، أو إلى الجامعة اللبنانيّة حيث كان الرئيس في فترة التأسيس، كان دائماً هو هو في الرحابة والبشاشة، وفي الفرح الرائع باستقبال من يقصده لغرض علميّ أو مطلب أكاديميّ، ليقينه بأنّ لبنان الحقيقيّ لا يمكن أن يقوم إلاّ على متانة الذين يقاربونه بالعلم والفكر والوعي الحضاريّ.

ومثلما كنا نغرف من روائعه في مطلع شبابنا المقاصديّ، ونتابع ما تثيره آراؤه من جدل حولنا، كذلك كنّا نغرف من بحره الوسيع، هو الذي يعطي ولا منّة، ويسخو بلا حساب، ما سوى ليبقى في لبنان من يكمل رسالة لبنان الحضاريّة.

Dr. Albert Sarah

Fouad Boustany

Trois initiales fascinantes, que nous connaissions dès nos années de collège. J'étais entré chez les Pères Jésuites, interne dans la Division des Petits, et déjà nous avions remarqué cet élève de Philosophie qui, dans les grandes circonstances, était chargé de lire un texte au nom de tout le collège.

Lors des proclamations générales dans la Salle des Fêtes, le nom de Fouad Boustany revenait le plus souvent, car il fauchait toutes les places de premier. Nous avons bientôt appris que, brillant dans toutes les matières même scientifiques, il l'était exceptionnellement en langue Arabe.

Aussi, à la rentrée d'Octobre 1925, alors que nous passions en Cinquième, lui, Fouad Boustany, à peine son diplôme en poche, était nommé professeur de la classe de Seconde Arabe, c'est-à-dire professeur de ses propres camarades de la veille.... Ces grands garçons allaient-ils continuer à tutoyer leur professeur-camarade? Essayez de vous rappeler les coutumes de l'époque, où la familiarité n'était pas courante... Or, ces gars ont su concilier le protocole et l'amitié en lui trouvant spontanément l'appellation de "Eustaz", le tutoiement étant réservé pour l'extérieur. Et bientôt le nom de "Eustaz", comportant une nuance d'amitié et même d'affection, devint l'apanage exclusif du jeune professeur. Au collège il n'y avait pas d'autre Eustaz que lui. De sorte que nous-mêmes ses amis, arrivés à l'âge adulte, parlant de lui, nous continuions à la désigner par "Eustaz", même en son absence.

Je reviens aux années de collège:

A' la division des Moyens, nous avions l'occasion d'apercevoir souvent Eustaz, car il logeait au pavillon des professeurs et donc était interne comme nous. Sociable de nature et pédagogue inné, s'il rencontrait un élève traversant une cour, il s'arrêtait volontiers pour faire connaissance et échanger quelques propos. De sorte qu'à la rentrée d'Octobre, lorsqu'il prenait en charge ses nouveaux élèves, il les connaissait déjà tous. Quel rare avantage pour lui et pour eux!

Je fus un privilégié qui, dès la classe de 3ème, étais appelé par lui pendant des moments libres et profitais d'un entretien qui était à la fois détente et enrichissement. Les sujets les plus variés étaient abordés, de façon si naturelle de sa part, que je ne songeais même pas à le remercier pour le temps qu'il m'avait consacré.

La classe d'Arabe qui, jusque là, avait été un moment plutôt aride, devint en Seconde une heure de plénitude pour nous tous, où l'on se sentait par le temps passer, une heure que même un élève paresseux n'aurait pas voulu manquer

Nous apprîmes incidemment que notre Eustaz, travaillant en équipe avec monsieur Bounoure conseiller culturel du Haut-Commissariat, était en train de mettre la dernière main au programme du Baccalauréat Libanais encore inexistant. Ce travail capital effectué dans la discrétion et achevé pendant notre année de seconde, aboutit à l'institution du Baccalauréat Libanais. Il était naturel que son principal artisan fût le professeur de "la classe du Bac".

Or nous, la classe de Seconde, fûmes les premiers bénéficiaires de cet événement historique, car notre Eustaz dut "monter de classe" avec nous et rester notre professeur de Première.

Ainsi, notre promotion eut cette chance vraiment unique dans les annales: avoir, pendant deux années de suite, le professeur exceptionnel qu'est Fouad Boustany. En même temps que professeur d'arabe, il nous ouvrait à la culture universelle:

Qui pourrait croire qu'il nous a parlé de Nietsche *(Ainsi parlait Zarathustra)*, dont nous n'avions même pas entendu le nom? Il nous a donné à traduire en arabe le poème de Kipling inconnu de nous, mais bientôt de plus en plus célèbre dans le monde

Si tu peux voir détruit l'ouvrage de ta vie

Et, sans dire un seul mot, te mettre à rebâtir

Ou perdre en un seul coup le gain de cent parties

Sans un geste et sans un soupir, etc...

Je m'excuse de me citer en exemple: J'avais toujours été un élève moyen en arabe, et je ne me serais pas cru capable d'atteindre les premières places. Or, avec la pédagogie humaniste de ce merveilleux professeur, j'ai pu, à mon étonnement personnel, arriver même une fois à être premier en Excellence.... Permettez ici une réflexion que j'ai formulée une fois que j'ai eu moi-même l'expérience de l'enseignement: il n'y a pas de mauvais élèves; il y a de mauvais professeurs, même s'ils sont pleins de science.

Que dire, alors, du grand éducateur que fut notre héros?

Je laisse à d'autres le soin de vous parler de l'œuvre littéraire de Fouad Boustany. Mais je signale seulement que, dès qu'il a passé de la situation d'élève à celle de professeur, il a voulu combler une lacune notoire dans l'enseignement de l'arabe à l'époque: alors qu'en France, la Collection "Classiques pour Tous" de la Librairie Hatier diffusait largement des opuscules bon marché, mettant les trésors des lettres à la portée des élèves, ceux-ci, pour étudier les auteurs arabes, n'avaient aucun imprimé abordable. Ils devaient se débrouiller avec les cours dictés en classe par leurs professeurs.

Fouad Boustany commença donc, dès les années Trente, à publier les célèbres "Rawa'eh" روائع qui connurent un succès considérable, inattendu, et furent happés dans les écoles au Liban et dans de nombreux autres pays. Les Rawa'eh' finirent par être des "Classiques pour Tous", à l'instar de la Collection Hatier. A cet

égard, notre Eustaz fut un vrai novateur dans l'enseignement, et ce n'est pas peu dire que de citer cet exploit parmi ses titres de gloire.

Je mentionne en passant la mémoire prodigieuse dont il était doté. Pour les dates historiques ou celles des auteurs, on avait parfois le souffle coupé de l'entendre, le plus naturellement du monde, citer les moins connues d'entre elles. Mais c'est dans les textes littéraires qu'on était le plus étonné: il déroulait des dizaines de vers des poètes aussi bien classiques que de la période récente, comme Paul Claudel, Charles Péguy ou notre Charles Corm. Dans une réunion où il avait, comme en passant, fait une longue citation de classiques, un ami qui ne le connaissait pas de près me disait, en sortant, combien il en était ébahi. Je lui ai répondu qu'il n'avait vu que peu de choses.

Et que dire de l'homme?

Il était le maître à penser de toute une jeunesse, conquise par son enseignement et par une vie exemplaire, qui était l'illustration de ses principes.

Il avait le culte de la vérité, et disait avec humour qu'il avait fondé la Ligue contre le Mensonge. Il défendait la vérité simplement, sans crispation, étant à l'aise avec ceux qui étaient d'opinion différente ou même opposée. Parfois, par une des boutades dont il avait le secret, il démolissait l'argumentation adverse.

Son humour trouvait sa place dans les occasions les plus diverses, parfois inattendues. Je cite avec émotion un dernier trait qu'il m'a lui-même rapporté: le Président Hraoui avait invité la famille Boustany au palais de Baabda pour conférer à notre héros la distinction du Grand Cordon du Cèdre. En saluant le Président, il lui dit en plaisantant بكّرتم بالتأبين "Vous y allez un peu tôt pour l'oraison funèbre".

On dirait que, lorsqu'il sortait cette boutade avec le sourire, il avait comme la prémonition d'une fin prochaine. Et c'est effectivement après ce grand jour où un nouvel honneur lui était conféré, que sa

santé commença à décliner. Avec l'angoisse et la douleur de ne rien pouvoir faire, nous avons suivi sa dernière maladie.

Pour moi, je considère que l'une des faveurs notoires dont le Seigneur m'a gratifié, fut, depuis mon adolescence, celle de la riche amitié d'un homme hors du commun.

هنري زغيب

عرفتُهُ خمساً حاليات بالمعرفة، ولكلّ مَحطّةٍ جناها الوفيرُ من بيدره الكثير.

أولاها سنة ١٩٦٦، يوم اطّلبتُ عليه في الجامعة اللبنانيّة، وكان رئيسَها، ويدرّس مادة الشعر الجاهليّ، فكان في الصفّ نضِرَ البثّ والإدلاء، يَشيلُ الجاهليّ من عصره إلى تقشير قصائد شعرائه، بما يَجعلُها عماراتٍ شعريّةً عرفنا منه كيف نشبَت في زمانها فكانت أسساً لعماراتٍ عليها انبنى فنّ الشعر.

وثانيها سنة ١٩٧٨، وكنتُ مهتمّاً - كما لا أزال - بالياس أبو شبكة نتاجاً وأضواءً على سيرة، فطلبتُ من اثنين بينِ أساتذتي في الجامعة: فؤاد افرام البستاني وأحمد مكّي أن يشاركا في مهرجان أقمتُهُ في القصر البلديّ - زوق مكايل. ولبّيا فكشفا عن صديقهما الشاعر ملامح من ذكرياتهما أضاءت عليه. وروى أستاذيَ البستاني، بين ما روى، كيف اصطحب سعيد عقل إلى المستشفى الفرنسيّ وأبو شبكة على سرير الاحتضار الأخير، ما أفرح الشاعر الشاحب الذي، بعد خمسين عاماً على تلك الزيارة إليه، خلّدها سعيد عقل في قصيدة الخمسينيّة فقال:

حــتّــى إذا مضّــهُ الــداءُ، ارتــأى وَلــعــاً
أن أســتــجــيبَ لِــلُــقــيــا تَــفْــجُــرُ الــوَلَــعــا

ويــومــذاك ارتــدى الــثّــوب الأنــيــق لــكــي
يــقــول: "هــا مــلكٌ زارا الــهــنــا جُــمِــعــا"

أفضى بِها ومضى يَحكي، يغوص على

جلال شِعريَ حتى ردَّني وَلِعا

ثالثة المحطّات سنة ١٩٨٠، يوم تسلّمتُ مديريّة البرامج في إذاعة "لبنان الحُر"، فأنشأتُ برنامجاً سَمّيتُهُ "حصاد العمر" سجّلْتُ منه أربع حلقاتٍ مع الرئيس شارل حلو، وعشراً مع توفيق يوسف عوّاد (نَجم عنها لاحقاً كتابُه الذي استأذنني بلطفه الأبويّ أن يعطيه عنوان البرنامج "حصاد العمر"). وحين عرضتُ على أستاذي البستاني تسجيل مذكّراته، اقترح عليّ استبدالَها ببرنامجٍ يوميّ سَمّاه "أيّام لبنان"، فكنتُ آنس إلى جِلساته تلك، يروي فيها كلَّ يوم ماذا جرى في مثل ذاك اليوم، من أحداثٍ أو مَحطّاتٍ أو علامات أعلام، وكم كان مدهشاً في التذكار، متعةً لي وأنا أُراقبه تندفع على لسانه المعلومات، لا مدوّنةً بل متدفّقَةً منه ارتجالَ تذكُّر، وهو يدّفق معلوماتٍ وأسماءَ وتواريخَ وشهاداتٍ ومعاركَ ووقائعَ وأعلاماً وعلاماتٍ وإحصاءات، ولو انّني أسمعه من الإذاعة لا حاضراً تسجيلَه الحلقات، لَما كنتُ أُصَدّق أنه يرتَجل بل يقرأ.

رابعةُ المحطّات سنة ١٩٨٣ حين قصدتُه مستزيداً من ذكرياته عن الياس أبو شبكة، لتحقيقٍ موسَّعٍ كنتُ أُعِدُّهُ لـ "النهار العربيّ والدوليّ". فلم يَبخَل، ومدهشاً كان في روايته لي ذكرياتٍ مستفيضةً غيرَ تلك التي كان قالَها في مهرجان القصر البلديّ، وكان بها يدّفِق سلساً منسَّقاً منمَّقاً، ما يذهل سامعه من بَحر ذكرياتٍ لديه يَجعله، قبل أيٍّ سواه، شاهداً على العصر، موسوعيَّ المادة والشكل الأنيق.

خامسةُ المحطّات سنة ١٩٨٦، لدى استدعائي من نيويورك لتسلُّم إدارة البرامج الثقافيّة في "المؤسّسة اللبنانيّة للإرسال". يومها حظيتُ بأستاذيَ البستاني يسجّل لدائرة البرامج الثقافيّة برنامَجه الأسبوعيّ "لبنان الدائم"، وأمام الكاميرا هذه المرّة، أي بِمتعةٍ أكبر لرؤيته، لا لسماعه، يرتجل ستّين مُمتعاتٍ من الدقائق، يروي عن أمجاد لبنان فلا يرتوي منه مُشاهدٌ ولا متابع، يفتتح الحلقة الجديدة حيثُ توقَّف في ختام الحلقة السابقة، لا قفزةٌ في تاريخ أو اسمٍ أو حادثةٍ أو واقعة، كتاباً مفتوحاً من التاريخ والآداب والحضارة، جعلَت لبنان على لسانه وبشخصه راوياً، كشفاً عظيماً لِمتتبّعي البرنامج، حتى إذا نافت الحلقات على المئة، وضَّبتْها المؤسّسة في أشرطةٍ لو اتّسع تسويقها لوفّرت على المشاهدين اليوم هذا الفوران من ساعات تلفزيونيّة على جميع شاشاتنا تنشئ جيلنا الجديد على خرعاتٍ وصرعاتٍ وموجاتٍ من الانحطاط الخُلُقيّ والفنيّ والموسيقيّ والبرامِجيّ التافه الساقط.

١٩٨٨ ندهتني أميركا من جديد فسافرتُ إليها ستَّ سنواتٍ خصيبة كنتُ خلالَها أستهدي بِحيويّة أستاذي البستاني لأزداد هناك حيويّةً وإنتاجاً. وبعد أيّام لعودتي النهائيّة إلى لبنان من المنأى المؤقّت على بُحيرة الليمون في فلوريدا، كنتُ ذات يوم من ١٩٩٤ في زيارة الصديق الكبير فاضل سعيد عقل، فسألني أن نزور أستاذنا معاً البستاني في المستشفى وهو في حالة دقيقة. فَرِحْتُ أن أعود فألتقي أستاذي من جديد، غير أنّ غرفة العناية الفائقة حالت دون التقائنا إيّاه، فعدنا، الأستاذ فاضل وأنا، وبنا غصّةٌ حافية.

بعدها بأيّام، كنا نودّع، مع كلّ لبنان، أستاذنا الذي غاب. وبعدها بأسابيع، وكنتُ أستشفي من وعكةٍ صحيّة، اتّصل بي الشيخ عبدالله العلايلي يسألني

أن ألقي عنه كلمته في احتفال جامعة سيّدة اللويزة بفؤاد افرام البستاني، فأعتذر وأغيب عن الاحتفال الذي حفر في الزمان قول سعيد عقل عن البستانيّ الكبير:

إن رحتُ أُطـــريـــه يُـــغضـــي رأسُـــه دَعَـــةً
كــرأس صــنّــيــن يــهـوي، إن هَــوى، صُــعُــدا

غير أنّني، إنْ أضعتُ فرصتي الأولى في استذكار أستاذي البستاني على منبر جامعة سيّدة اللويزة، فها هي الجامعة اليوم، بعد عشر سنواتٍ على الأولى، تدعوني إلى منبرها لاستذكار أستاذي في مئويّته، فألبّي شاكراً متمنياً: أمّا الشكر فأن تكونَ بادرَت، وأمّا التمنّي فأن تواصلَ استذكار كبارنا أركان لبنان الحقيقيّ.

وطوبى لِجامعةٍ تكسر طوق المقعد الجامعيّ إلى حفظ الذاكرة.

إنّ ذاكرة الوطن مطلوبةٌ أوّلاً من المنابر الجامعيّة، تَحفظُها موثّقةً في ذاكرة الزمان.

جلسة أكاديميّة

رئيس الجلسة: د. منصور عيد

المشاركون: د. أحمد أبو حاقة

د. دياب يونس

د. غالب غانم

د. أهيف سنّو


NOTRE DAME
UNIVERSITY
تحيي يوم
فؤاد افرام البستاني
دير القمر ٢٨ / ٥ / ٢٠٠٤

د. منصور عيد

ما يمنعنا أن نجعل مدننا وقصورنا وغاباتنا مسارح لأبطال وبطلات رواياتنا الوطنيّة؟ في كلّ مقصورة من مقاصير بيت الدين رواية... في كلّ سرداب من سراديب الأمير بشير رواية... في كلّ دهليز من دهاليز فخر الدين رواية... تحت كلّ أرزة من أرزاتنا رواية، وفي كلّ صفحة من صفحات تاريخنا رواية.. فبلادنا مسرح للروايات واسع، وتاريخنا كنز من الحوادث لا يفنى.

هذا ما قاله فؤاد افرام البستاني الكبير، وهو يخزّن في لاوعيه الطفولة التي حاكتها دير القمر، البلدة العريقة في التاريخ، وصقلها قصر بيت الدين أيّام ترعرع فيه صبيّاً في كنف أبيه، الضابط المسؤول عن الجَبَخانة، مخزن الأسلحة في القصر. بل صقلها تاريخ تروي حكاياتِه الأروقةُ والأجنحة والساحات، وصورُ أميره البشير، وهيبتُه ووقارُه، ونظراتُه الحادّة الثاقبة، وحاجباه المتحدّيان أغوار المدى، وأصداءُ صوته المتردّدة في رواياتٍ وأخبارٍ يسمعها الفتى على لسان عمّه يوسف منصور افرام البستاني، أصمعيٌّ زمنه، وراويةِ أخبار المير.

وليالي الشتاء الطويلة المضرمة بوهج نار المواقد، تلهب في النفوس حكايات البطولة والفروسيّة، فيكبُر الصبيّ محبّاً للعلم والمعرفة، على ذكاء حادّ، ونبوغ متميّز.

يروي إدوار حنين في مقدّمة كتاب: على عهد الأمير، يقول: إنّه يوم كانت حفلة توزيع الجوائز للسنة الجامعيّة النهائيّة في جامعة الآباء اليسوعيين، برز صبيٌّ من آل البستاني، وقد استأثر بجميع جوائز صفّه، حتى أنّه لم يعد

يستطيع أن يحمل جوائزه، فهبّ رئيس الجامعة الذي كان يتصدّر الحفل، يساعده على حملها، فصفّق لهما الحضور طويلاً، وكان ذلك الصبيّ البستانيّ هو فؤاد افرام.

في الثالثة عشرة من عمره أصدر مجلّة "علم الأدب"، وتوالت نشاطاته وإبداعاته في إصدار الكتب: في الرواية والتاريخ والدراسات الأدبيّة - خصوصاً سلسلة الروائع. ولعلّ نتاجَه الفكريّ الموسوعيّ الأهمّ دائرةُ المعارف التي سدّت فراغاً كبيراً في المكتبة العربيّة. له بحوث ودراسات ومحاضرات كثيرة في التاريخ والأدب. تعلّم الفرنسيّة والتركيّة والسريانيّة والايطاليّة والاسبانيّة. شارك في تأسيس معهد الآداب الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة. وتولّى أمانة سرّ اللجنة الوطنيّة للأونسكو منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٥، ثمّ تولّى رئاسة الجامعة اللبنانيّة. أشرف على إصدار وتحرير مجموعة من المجلاّت الثقافيّة والأدبيّة. كان عضواً في الأكاديميّة الدوليّة للعلوم السياسيّة في جنيف. شارك في النشاط السياسيّ يوم كان البلد يحترق، متشبّثاً بصلابة إيمانه الوطنيّ، ثمّ راح يطلّ علينا عبر الشاشة الصغيرة راوياً حاذقاً وعميقاً، لبقاً ومبتسماً، حاضر الذهن على طرافة، وكِبر في العمر وفي الفكر، غائصاً في التاريخ اللبنانيّ وهويّة لبنان الحضاريّة.

من محاضرة له في الندوة اللبنانيّة يقول: يبرز لبنان من ضباب ما قبل التاريخ في ظلّ شعار مثلّث: الايمان بما وراء المادّة، الأخذ بروعة الجمال، السعي في تحقيق الذات. هذا هو ثالوث الوجود اللبنانيّ الذي أوجزه قداسة البابا بعبارة: لبنان رسالة.

إنّ جامعة سيّدة اللويزة التي كانت سبّاقة في تكريم فؤاد افرام البستاني بعد وفاته واليوم كذلك في ذكراه العاشرة، أسمح لنفسي، وأنا ابن هذه الجامعة، أن أتمنّى على إدارتها الكريمة أن تطلق مبادرة أدبيّة وفكريّة، وأن تكون السبّاقة أيضاً إلى تأسيس لجنة تكريميّة لهذا الرجل، تشجّع الأبحاث الخاصّة التي تتناول الجوانب الكثيرة من أدب فؤاد افرام البستاني.

ولعلّنا اليوم، في جلسة الأبحاث هذه، نضيء خطوطاً أساسيّة في أدبه وفكره، من خلال ما سيقدّمه الباحثون الأصدقاء الذين نشهد لعلمهم وفكرهم ونشكر لهم جهدهم ومشاركتهم.

د. أحمد أبو حاقة

أيّها الحفل الكريم

سلام الله عليكم.

وبعد، فإنّه يسرّني ويشرّفني أن يكون حديثي إليكم الآن عن أستاذي الكبير المغفور له الدكتور فؤاد أفرام البستاني.

في شهر تشرين الأوّل من العام ١٩٤٨ ، دخلت دار المعلّمين والمعلّمات، وكان هو مدير هذه الدار، وأستاذاً فيها، فعرفته لأوّل مرّة عن كثب، وتتلمذت عليه، وبدأت أنهل من معين ثقافته الانسانيّة الشاملة التي تجمع بين التاريخ والأدب واللغة والعلم، والفكر والفن، وسائر ما ينطوي عليه معنى الحضارة، إضافة إلى الأخلاق والذوق وحضور البديهة والذكاء المتوقّد. ولا تسل عن مدى إعجابي به آنذاك، وإكباري له، حتى غدا مثلاً أعلى لي ولزملائي في الدار.

ومنذ أن ألقى علينا محاضراته الأولى عن الأدب والفن والجمال والشعر والنثر والأدب العربيّ، بدأت أشعر بأن الحظّ قد وفّقني بأستاذ مميّز، بينه وبين من عرفت من الأساتذة، سابقاً ولاحقاً، بون شاسع، سواء في اللغة العربيّة، أو الأدب العربيّ، أو الثقافة العربيّة، علماً وفلسفةً وحضارةً وتاريخاً وما إلى ذلك، فضلاً عمّا اختزنه في شخصيّته من ثقافات الأمم الأخرى، سعةً وعمقاً وتنوّعاً ورقيّاً.

لست أنسى تلك الدروس الراقية التي كانت تعقد في دار المعلّمين والمعلّمات، وكان يجود علينا فيها أستاذنا المحبوب بالمعرفة والذوق واللياقة والظرف وحضور البديهة، وحسن الادارة والمعاملة، وإعطاء المثل الصالح.

لا ريب في أنّ أساتذة آخرين كانوا يتولّون إعدادنا، ولهم فضل في ذلك لا ينكر لكنّ البستاني كان أبرزهم وأقواهم شخصيّة، وأبعدهم أثراً. أضف إلى ذلك تلك المحاضرات الأسبوعيّة التي كان يلقيها مساء كلّ خميس في جامعة القدّيس يوسف، وكان يحضرها المثقّفون وطلّاب العلم والمعرفة من مختلف المؤسّسات التربويّة والثقافيّة القائمة في داخل بيروت، أو في خارجها، ليتابعوا موضوعاتها التي تدور في معظمها حول الأدب العربيّ، قديمه وحديثه، وفنونه وتاريخه، ناهيكم بالمعلومات الغزيرة التي كان يزوّدنا بها عن المؤسّسة الثقافيّة العالميّة "الأونسكو"، التي كان البستاني أبرز اللبنانيين العاملين فيها بنشاط واهتمام وإخلاص.

في تلك المرحلة من مراحل دراستي، تعرّفت على اثنين من أعمال الدكتور فؤاد أفرام البستاني: "الروائع" و"الأدب العربيّ في آثار أعلامه". وكنت قد عرفت من قبل في المرحلة المتوسّطة كتابه عن تاريخ لبنان، وقد كان المقرّر الذي درسنا فيه تاريخ وطننا دراسة علميّة منظّمة.

ولا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أتحدّث عن ذينك العملين الأكاديميين الجليلين المذكورين أعلاه، ولو بكلمات موجزة. فكتاب الأدب العربيّ في آثار أعلامه، كتاب مدرسيّ منظّم تنظيماً جيّداً، أُعِدّ خصّيصاً ليساعد طلّاب البكالوريا اللبنانيّة في دراسة الأدب العربيّ. هو لم يكن من عمل الدكتور فؤاد البستاني وحده؛ فلقد كان له شريكان في ذلك هما الأستاذ الشيخ خليل تقي

الدين، وواصف البارودي، ولكنّ روحه وتنظيمه وذوقه وخبرته، وبصماته واضحة كلّ الوضوح في هذا الكتاب.

أمّا سلسلة الروائع، فتستحقّ أن يطول عنها الحديث ويتشعّب، لما لها من أهميّة في الدراسات الأكاديميّة الرصينة، في تاريخ الأدب العربيّ ونصوصه وأعلامه. فكلّ جزء كان مخصّصاً لعلم من أعلام الأدب العربيّ، بدءاً بالعصر الجاهليّ، وانتهاءً بعصر النهضة حتى منتصف القرن العشرين. ولربّما كان للعلم الواحد أكثر من جزء، كما هي الحال مع الجاحظ والمتنبّي، وابن خلدون، وسليمان البستاني وأحمد شوقي، وسواهم. وقد بلغت سلسلة الروائع خمسة وسبعين جزءاً. وهي في الحقيقة روائع، لا من حيث أعمال أعلامها فقط، بل من حيث عمل الدكتور فؤاد أفرام البستاني فيها. فهو عمل تأليفيّ منظّم، ودراسات مكثّفة، تضع في خمسين صفحة عن العلم ما يغني عن مئات الصفحات.

في العام ١٩٤٩، عرفت كتاباً آخر من تأليف الدكتور فؤاد البستاني هو: "خمسة أيّام في ربوع الشام". والكتاب من نوع أدب الرحلة، فيه ما يمتع ويثقّف ويصقل الذوق في رحلة حقيقيّة قام بها طلاّب السنة النهائيّة في دار المعلّمين والمعلّمات آنذاك، مع مدير الدار، وكان زمن الرحلة في عطلة عيد الفصح في فصل الربيع. أمّا وجهتها فكانت الأراضي السوريّة الساحليّة والداخليّة، من حدود النهر الكبير إلى طرطوس فأرواد، إلى اللاذقيّة فحلب، إلى المعرّة وحماة وحمص، إلى دمشق بطريق النبك ودير عطيّة. لكنّ الرحلة تعرّضت لعاصفة شديدة، وصعوبات في البحر عند جزيرة أرواد، قاربت الخطر في بعض الأحيان، فاحتجزت العاصفة أفراد الرحلة، بمن فيهم المدير

والأساتذة مدّة يومين، ثمّ أفرجت عنهم ليكملوا رحلتهم، ما أوحى إلى الدكتور فؤاد البستاني بتأليف كتاب عن تلك الرحلة أسماه: "خمسة أيّام في ربوع الشام"، وهو كتاب طريف جدّاً وممتع، يبلغ مئتين وإحدى وثلاثين صفحة، تنتهي بالفقرة التالية:

"ويُؤْذن الأصيل بانتهاء الرحلة، فنأوي إلى السيّارة تعبين، مشتاقين إلى لبنان، وقد طالت هذه الأيّام الخمسة، حتّى حسبناها دهراً، على ما شهدنا فيها، وقاسينا، وأفدنا من العظات والعبر. ونقطع صامتين وادي القرن، ووادي الحرير، حتّى إذا أطللنا على البقاع العزيز، يزدهي اخضراره في حمرة الغروب، وأطلّت علينا قمم الباروك تناجي قمم حرمون بآخر الأشعّة اللاهثة على بياض الثلوج، أخذتنا غبطة لا واعية، فاندفعنا كمن فم واحد منشدين: كلّنا للوطن.

وبعد ذلك، يذيّل الكتاب بفهرسين طويلين: أحدهما يتضمّن الأشخاص والقبائل والشعوب في ثلاث عشرة صفحة، وثانيهما يتضمّن الأماكن والمحالّ والبلدان في تسع صفحات.

"خمسة أيّام في ربوع الشام" كتاب طريف جدّاً وجدير بالقراءة.

وفي العام ١٩٥٠، تخرّجت في دار المعلّمين والمعلّمات، حاملاً الشهادة التعليميّة، والبكالوريا اللبنانيّة - القسم الثاني. وكنت مضطرّاً إلى أن يكون تعييني مدرّساً في مدينة بيروت. أقلّه من أجل أن أتابع دراستي الجامعيّة. وكان التعيين في مدينة بيروت، ولا سيّما لمن هو غير بيروتيّ، من أصعب الأمور وأقربها إلى الاستحالة. ولكنْ، بصفتي مقرّباً منه، وواثقاً بكلمته المسموعة في وزارة التربية الوطنيّة، طلبت منه أن يساعدني في ذلك، فاتّصل

بمفتّش بيروت آنذاك الأستاذ الشاعر نقولا بسترس، وأبلغه رغبته في أن أعيّن في مدينة بيروت، فكان ذلك، علماً بأنّه لم يعيّن في بيروت من زملائي المتخرّجين في تلك السنة أيّ واحد منهم.

وفي الخامس من كانون الأوّل عام ١٩٥١، فتحت أوّل مؤسّسة من مؤسّسات الجامعة اللبنانيّة أبوابها، ألا وهي دار المعلّمين العليا، التي تحوّل اسمها فيما بعد إلى معهد المعلّمين العالي، بعد أن عيّن الدكتور فؤاد افرام البستاني رئيساً للجامعة اللبنانيّة، وأخذ يعمل على تنظيمها، وعلى إعداد النصوص الخاصّة بذلك. وطبيعيّ أن يكون رئيس جامعتنا أستاذاً لنا في قسم اللغة العربيّة وآدابها. ولكنّه كان أستاذاً من نوع خاصّ، تعرّفنا فيه إبّان تلك المرحلة إلى الأستاذ الجامعيّ الواسع الثقافة، والواسع الاطّلاع، والمتعمّق في الآداب عامّة، وفي الحضارات الانسانيّة، وبخاصّة في الأدب العربيّ والحضارة العربيّة، اللذين كان يتولّى تدريسهما آنذاك. وقد ترك بصماته واضحة جدّاً في ثقافتنا وفي أخلاقنا.

في العام ١٩٥٤، حزت الإجازة التعليميّة في اللغة العربيّة وآدابها، وكان علينا أن نُمضي في الجامعة اللبنانيّة بمعهد المعلّمين العالي سنة دراسيّة إضافيّة للحصول على شهادة الكفاءة للتعليم الثانويّ، وكان منهاج هذه الشهادة ينقسم إلى قسمين: أوّلهما نظريّ يتضمّن دراسات في التربية وعلم الاجتماع، وفي بعض المواد المتعلّقة باللغة العربيّة وآدابها؛ وثانيهما عمليّ قوامه ممارسة التدريس في الصفوف الثانويّة. وقد اختارني رحمه الله لأتولّى تدريس الأدب العربيّ في مدرسة الآباء الكرمليين بدير القمر. وفي إبّان تلك السنة تعرّفت على دير القمر وأهلها عن كثب، ونشأت بيني وبينهم صداقات لا تزال

قائمة إلى اليوم، وقد زادتها الأيّام متانةً وتوطيداً، وزادتني بها اعتزازاً.و شدّة تمسّك. وفي العام ١٩٥٥ تخرّجت في الجامعة اللبنانيّة أستاذاً للتعليم الثانويّ. ولكنّ صلتي بها وبرئيسها لم تنقطع - فلقد بقيت أزورها أوقاتاً غير قليلة، إدارة، ومكتبة، وأنشطة ثقافيّة، ومحاضراتٍ عامّة. كما كنت أتولّى الاشراف العمليّ على ممارسة التدريس لطلاّب الكفاءة للتعليم الثانويّ من الأجيال التي جاءت بعدنا. وفي هذه المرحلة، تعرّفت على بعض الكتب الجديدة للدكتور فؤاد افرام البستاني، منها: النهج الواضح في مبادئ الأدب وفنونه، صدرت طبعته الأولى في العام ١٩٥٣، وهو مخصّص للمرحلة المتوسّطة في دراسة الأدب العربيّ. ألّفه بعض الأساتذة باشراف الدكتور بستاني، متّكئين فيه على سلسلة الروائع، ليكون نموذجاً في التأليف المدرسيّ، عن اللغة العربيّة وآدابها، وهو كتاب مكثّف أيضاً بمعلومات تنمّي معارف التلميذ الأدبيّة، وتصقل ذائقته الفنيّة، وحسّه اللغويّ، وتدرّبه على الكتابة الأدبيّة السليمة.

ومنها أيضاً "مذكّرات رستم باز". وهو كتاب تاريخيّ، حقّق نصوصه الدكتور بستاني، ونشرها مع مقدّمة وحواش وفهارس، يغلب عليها الطابع العلميّ المنظّم. وتتناول هذه المذكّرات السنوات العشر الأخيرة التي قضاها الأمير بشير الشهابيّ الثاني في المنفى. و"هي من أغمض الفترات في تاريخ الأمير، وبالتالي في تاريخ لبنان عامّة، كما يقول المؤلّف في مقدّمته. فلا وثائق تحفظ، ولا أسانيد تدوّن، ولا روايات تتناقل، إلاّ ما كان من أوامر موجزة رسميّة، وإشارات مقتضبة في التقارير الدبلوماسيّة، وأوصاف نادرة في أقوال بعض الزوّار. فكان، والحالة هذه، لمذكّرات رستم باز الذي رافق الأمير الشهابيّ في منافيه كلّها على كثرتها، وطول أبعادها، ومشقّات مراحلها، أهميّة كبرى،

ولاسيّما أنّ رستم باز كان الخادم الأمين والمستشار الحكيم والعون المخلص للأمير، وكان خير من كتب عن تلك المرحلة في مذكّراته التي هي موضوع هذا الكتاب.

وما طال الزمان حتى عدت إلى الجامعة اللبنانيّة أستاذاً متعاقداً في معهد المعلّمين العالي، ثمّ أستاذاً في ملاك كليّة التربية التي أنشئت في العام ١٩٦٦ . وفي غضون أربع سنوات بعد هذا التاريخ، عملت أستاذاً للّغة العربيّة وآدابها في ظلّ إدارة الدكتور فؤاد أفرام البستاني للجامعة اللبنانيّة التي قد توسّعت ونظّمت تنظيماً إدارياً سليماً، وقامت فيها كليّات الحقوق والعلوم والآداب والتربية، ومعهد العلوم الاجتماعيّة، ومعهد الفنون الجميلة. وأخذت تتكامل يوماً بعد يوم، إلى أن بلغ رئيس الجامعة اللبنانيّة الدكتور فؤاد افرام البستاني السنّ القانونيّة، فتقاعد من العمل في الجامعة اللبنانيّة، لكنّه ظلّ مستمرّاً في أنشطته العلميّة والثقافيّة والأدبيّة إشرافاً على أطروحات الدكتوراه في جامعة القدّيس يوسف، وتأليفاً في الحقل الأكاديميّ، ومحاضراً ومتحدّثاً في البرامج التلفزيونيّة، ذات المستوى الراقي. وفي هذه المرحلة، لا بدّ من ذكر أضخم عمل علميّ ثقافيّ معجميّ قام به أستاذنا الكبير، هو مشروع دائرة المعارف الذي صدّره بمعلومة للذكرى والتاريخ، جاء فيها ما يلي: باشر تحقيق هذا المشروع ونشر مجلّداته الستة الأولى من السنة ١٨٧٦ إلى السنة ١٨٨٣، المعلّم بطرس البستاني المولود عام ١٨١٩ والمتوفّى عام ١٨٨٣ .

تابع العمل ونشر المجلّدين: السابع، سنة ١٨٨٣، والثامن سنة ١٨٨٤ ابنه المعلم سليم البستاني (١٨٤٧-١٨٨٤)، استأنف العمل ونشر المجلد

التاسع سنة ١٨٨٧، والعاشر سنة ١٨٩٨، والحادي عشر سنة ١٩٠٠، منتهياً بلفظة عثمانيّة، ابنا المعلّم بطرس البستاني: نجيب البستاني ١٨٦٢-١٩١٩، ونسيب البستاني ١٨٦٧-١٩١٣، بالاشتراك مع نسيبهما سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥).

جدّد المشروع من أصله، فأعاد النظر في المجلّدات المنشورة، واستحدث أبحاثها وفقاً لما وصلت إليه الدراسات العلميّة العصرية، وأعدّ العدّة لإتمام العمل حتى النهاية بمؤازرة لجنة من الاختصاصيين في مختلف أنحاء العالم، فؤاد افرام البستاني، رئيس الجامعة اللبنانيّة، وذلك برعاية صاحب الفخامة الأستاذ كميل شمعون رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة. وقد ظهر المجلّد الأوّل من هذه الدائرة الجديدة سنة ١٩٥٦. وبعد ذكر المشاركين في مباحث المجلّد الأوّل من الدائرة، وعددهم ثمانية وخمسون كاتباً اختصاصيّاً، كتب الدكتور فؤاد افرام البستاني مقدّمة لهذه الدائرة في أربع صفحات كبيرة من صفحات الدائرة، نختصر أهمّ ما فيها بما يلي:

١ - لكلّ أجل كتاب. لقد كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر زمن نهضة في البلاد العربيّة، ظهرت فيه المدارس والجمعيّات والجرائد والمجلاّت والتآليف المدرسيّة والمعاجم والمنشورات العلميّة والأدبيّة شعراً ونثراً؛ ممّا استوجب ظهور دائرة للمعارف باشر إخراجها منذ السنة ١٨٧٦ المغفور له، المعلّم بطرس البستاني، ورعاها حتّى وفاته عام ١٨٨٣، مصدراً ستة مجلّدات، متوقّفاً في إعداد المجلّد السابع عند لفظة دائرة، وهو من غريب الاتفاق.

٢- ورث العبء عن المعلّم بطرس ابنه سليم فأخرج المجلّد السابع سنة ١٨٨٣ والثامن سنة ١٨٨٤.

٣- بعد وفاته اضطرب العمل في الدائرة مدّة لم تطل، إذ تولاّه ولدا المعلّم بطرس الباقيان: نجيب ونسيب، وعملا بمساعدة نسيبهما سليمان البستاني الشهير، معرّب الإلياذة. وسرعان ما استقبل المثقّفون في البلاد العربيّة ومواطن الاستشراق المجلّدات الثلاثة: التاسع ١٨٨٧، والعاشر ١٨٩٨، والحادي عشر ١٩٠٠ ثمّ توقّف المشروع نهائيّاً.

٤- بعد انقضاء نصف قرن، افتقد فيه المثقّفون كثيراً مشروع دائرة المعارف، نهض الدكتور فؤاد افرام البستاني بالمشروع، فانطلق من القديم آخذاً بالجديد.

٥- أمّا القديم فبقي منهن التصميم الأصيل الذي أقرّ الخطوط الكبرى للمشروع، على نحو ما فصله بطرس البستاني قبل ثمانين سنة، وقد أورده الدكتور فؤاد افرام البستاني بنصّه الأصيل، ذاكراً ما ضمّنه المعلّم بطرس من قبل، وهو مقسّم كما يلي:

أ- العلوم الإلهيّة والفلسفيّة

ب- العلوم المدنيّة والسياسيّة

ج- العلوم التاريخيّة والجغرافيّة

د- العلوم التعليميّة كالحساب والجبر والهندسة وما تفرّع عن ذلك

هـ- العلوم الآليّة والكيماويّة

و- العلوم الطبيعيّة

ز- علم الأدب واللغة والفصاحة والبيان والشعر والانشاء والتاريخ الأدبيّ

ح- الصنائع والفنون:

وأمّا الجديد فيقول الدكتور فؤاد افرام البستاني في صدده: "إنّ تقدّم العصر قد أملى علينا خطّته، فضلاً عن حاجتنا الملحّة إلى مسايرته في مختلف مظاهره. فكان لا بدّ من إعادة النظر في كلّ ما طبع من الدائرة القديمة. فهنالك أبحاث يجب أن تجدّد برمّتها، وفصول ينبغي أن تزاد، وتحرّيات وتدقيقات وإيضاحات ينبغي أن تضاف، لأنّ من العلوم ما نشأ نشأة مستأنفة كالكيمياء والفيزياء الحديثتين، وتطبيقاتها المتزايدة، ومنها ما جُدِّدَتْ فيه النظريّات كالفلكيّات والحيويّات على متفرّع ضروبها، ومنها ما أفاد كثيراً من الحفريّات والاكتشافات والأبحاث المعاصرة، كالأثريّات والتاريخ والجغرافيّة؛ حتى أنّ الأدب والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة وسائر الفنون والعلوم الانسانيّة نراها قد تطوّرت قليلاً أو كثيراً بالنظر لما كانت عليه منذ ظهور الدائرة، فغدا حتماً علينا أن نُعمل النقد والتمحيص والتنقيح والبتر والزيادة في المجلّدات الأحد عشر جميعها، وأن نعدّ العدّة لإكمال الدائرة في أقرب وقت وأسهل متناول، وهو ما قمنا به متّكلين على الله، مصدر كلّ علم، فأقررنا التصميم الشامل، واتّصلنا بعدد كبير من مشهوري الاختصاصيين في كلّ علم ومن أساتذة جامعات، وأعضاء مجامع علميّة وفنيّة، وأدباء وسُفراء وعلماء وفنّانين، من أبناء اللغة العربيّة والأجانب عنها من المقيمين في لبنان وفي غيره من أنحاء العالم، فلبّوا الطلب راضين، وأقبلوا على العمل راغبين مغتبطين بظهور دائرة معارف عامّة ترفع من مستوى الثقافة العربيّة، وتسهم

في سعي العالم الواعي لإقرار مزيد من التفاهم والتوادّ بين الشرق والغرب، والعمل على تقدير متبادل للقيم الثقافيّة الانسانيّة الصحيحة.

حيّا الله ذكراك يا أستاذنا الكبير، وأكرم مثواك في عالم الآخرة، فلقد كنت تؤمن بحوار الثقافات، وتفاعل الحضارات، واقتباس بعضها من بعض وهذا هو الرأي الصواب، لأنّ تواصل الحضارات وتثاقفها هو سنّة طبيعيّة في حياتها التي تمتدّ زماناً ومكاناً، فتتلاقى فيما بينها عندما تتعاصر، وتغتني تراثاتها، بعضها من بعض، في جوّ من السلم والطمأنينة والتعاون والثقة المتبادلة. وهذا ما يدحض، بقوّة ووضوح، نظريّة صموئيل هنتنغتون، أستاذ العلوم السياسيّة بجامعة هارفرد، وأحد كبار المؤلّفين الاستراتيجيين في أمريكا، التي أودعها كتابه الشهير الصادر في العام ١٩٩٦ بعنوان "صدام الحضارات، وإعادة بناء النظام العالميّ"، والذي من شأنه أن يؤجّج النزاع بين دول العالم، تبعاً لتصادم حضاراتها، وأن يجعل العدّادات تتحكّم في مصائر الشعوب وعلاقاتهم السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة وغير ذلك.

رحم الله أستاذنا الكبير وجعل من أبنائه وأحفاده خير خلف لخير سلف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. دياب يونس

هَرَمٌ من أمجاد وأنوار

جئنا الدير نسألُها عن ضريحٍ سَجا فيه، فقالت الديرُ:

إبحثوا عنه في روابيّ،

إسألوا خمائلَ الجبل عن وردة جوريّة،

إسألوا صخورَ لبنان عن منابت الصّوّان والرّيحان،

إسألوا هضابَ الشرق كم أشرقَ شمسَه عليها،

إسألوا الأجيالَ عن هَزَجِ أصدائه،

إسألوا المحاريبَ عن وَرَعٍ، والمعابدَ عن خشوع،

إسألوا العرائنَ عن آسادها والنخاريبَ عن النسور،

إسألوا الأقلامَ عن غار الكلام،

إسألوا المنابرَ عن غواياتِ الفتون!

إطْلُبوه، قالت الديرُ، هناك.

إطْلُبوه في مساحبِ النور لا في غياهبِ الديجور،

إطْلُبوه في ندى القطر لا في ظمأ القبر.

مجدُه، قالت الديرُ، سَرَقَةُ منّي.

جَناحاهُ الجبّاران حَمَلاهُ إلى أقاصي الأرض.

فهل أتيتم، اليومَ، يا طلاّبه وزملاءَه والأصدقاء اللائي جَمَعَتكم شيمُ الوفاء، تَرُدُّونه إليّ أم تستردُّون؟

أذاكرٌ، يا رئيسُ، فتىً أمردَ يدخل وصَحْباً له مكتبك، منذ أربعين من السنين، يطلبُ بتعالٍ وصَلَفٍ أن على رئيس الجامعة أن يمنعَ تظاهرةً يساريّة - عروبيّة أو يمنحَ الفريقَ الآخر حقَّ التظاهر في المكان والزمان عينهما، وإلاّ فإنه وصَحْبَه سيتولّون هذا الأمر بأنفسهم، فتلقّيتَ الفتى الأمردَ المتمرِّدَ وصَحْبَهُ ببسمة وطوّقتَهم بحنان، وجعلتَ تنثرُ أمامَهم أماثيلَ في الوطنيّة، وتحثُّهم على تخطّي صَخَب الشهوات، وتحدِّثُهم عن الحريّات العامّة، وتدعو إلى رحابة الصدر وقدسيّة الحوار، وتقول: لا تجعلوا وطنيّتكم تعصُّباً، فلبنان من بيئته العربيّة كالنقطة من الدائرة، وتذكِّرهُم بكلمة خاطبَ بها ڤولتير خصمَه: "بيني وبينك عداوةٌ لَدُود. بيد أنّي أبذل حياتي دفاعاً عن حرّيتك في انتقادي".

ذاكرٌ أنتَ، وليس في الأمر رَيْبٌ، كيف شددتَ ذلك الأمردَ المتمرِّدَ فَوَجَدَ في كَنَفِكَ مدرسةً، تُرشدُه إن استنصَحَكَ، وتثقِّفُ عقلَه إن لازَمَك، وترسِّخُ في نفسه ثقافةً وطنيّة لبنانيّة فيجد لدى دراسته شارل قرم "أُمَّةً في رجل"، وتوطِّد في قلبه محبّة الضاد فيضع دفاعاً عنها بليغاً، وتنثر أمامَه من خزائن الثقافة اللبنانيّة والعربيّة المميّزة ما امتلك مشاعرَه حتى الاستئثار فَبَرَز مناضلاً بَذَلَ للبنان ولقيم العرب إلهامَه كلَّه والجهاد.

تعالَوا، هنا، نُحَيِّ ذلك الزمنَ الطيِّبَ في لبنان وفي جامعته الوطنيّة الجامعة، وقد رَشَفْنا في نَدواتها ومنابرها من مُنَهَّبٍ أفواه فؤاد أفرام البستاني، وجواد

بولس، وأسد رستم، وكمال جنبلاط، وكمال الحاج، وسعيد عقل، وعبدالله العلايلي، وصبحي الصالح، وإدمون ربّاط، وموريس الجميّل، وبيار إدّه، وبشير العريضي وسواهم، حقائقَ عَمَّقت وطنيّتَنا اللبنانيّة وعَمْلقت رسالتَنا العربيّة الحضاريّة!

وما نَسينا، يا معلِّم، أنّنا أخذنا بعضَ الحِلم والعلم والمنهجيّة منك: مرّةً، ونحن على مقاعد الدراسة نقرأ في "روائعك"، وطوراً، في كليّة الآداب نظفر بك معلِّماً سَبَقَهُ إلينا وهجُ الاسم وأَرَجُ العلم، فإنْ تدخُلِ الصفَّ تمشِ في خُطاك الأهدابُ، وإن تنظرْ تَبْدُ زهوةً في تواضع وروعةً من جلال، وإن تَرْمُقْ فعيناك تتحرَّيان وتستوضحان، وإن تتحدَّثْ نَتَسمَّرْ على شفتيك وعينيكِ ويديك اللتين تُقولبان كلَّ ما ينطِقُ به جسدُك، فندرك، يا أبا هند، كيف المُزْنة تتحدَّرُ، وكيف السيلُ ينهمرُ، وكيف نَلُمُّ من دوائر معارفك حبّاتِ الجُمان، وكيف النشوةُ تتطاولُ والساعاتُ تتقاصرُ، فلا أنتَ تَكِلُّ، ولا نحنُ نَمَلُّ، ولا ينغِّصُ مُتعةَ من كانوا طلاّبَك أو سُمَّارَك سوى خَشيتِهم أن ينفضَّ عِقدُهم، وأن تمضيَ فتمضي في إثرك الألبابُ.

ذاكرين لا نزالُ حرمةَ المنطق لديك، ورصانةَ الجدل، وصرامةَ القياس، وهندسةَ التصميم، وبُعْدَ الغور، ولطفَ الأسلوب، ووضوحَ العرض، وقربَ المأخذ، والسَّدادَ في الحكم، وتواضعَ العلماء، وسعةَ المعارف، والحرارةَ في النكتة، والمفاجأةَ في الجواب المُسْكت.

وأنتِ، يا ديرَ القمر،

أيَّتُها القلعةُ الرابضة على صدر الزمان،

أيَّتُها العَدَنُ الغَرِقى في المواهب والجمالات،

أَيَّتُها العروسُ المتّشحةُ بالغيم، المؤتزرةُ بالقيم،

يا أخيلةَ الأمراء والفرسان في مخيّلات الأطفال،

يا عاصمةَ المعنيّين وفخر الدين والشهابيّين،

ردِّدي، يا ديرُ، على مسامعنا ما قالت العبقريّةُ لِفَتَاكِ: إهْجُرْ بَسْتنةَ البراري، يا ابنَ البساتنة، وحيَّ على بَسْتنة البرايا، فإنّني جاعلةٌ لك من الناس حقولاً. إِزْرَعِ البشرَ، وفي البشر، وصيِّرِ الناسَ ناساً.

وخَرَجَ البستانيُّ ليزرع، فزَرَعَ على قارعة طريق البشر فأكلت الطيرُ ما زَرَع؛ وزَرَعَ في أرضٍ حَجِرةٍ فسرعان ما ذَبُلَ ما ليس له أصلٌ؛ وزَرَعَ في الشوك فخَنَقَ بذارَه الشوكُ؛ وزَرَعَ في أرض جيِّدة فأثمرَ ثلاثين، وستّين، ومئة. فباسم هؤلاء الذين أَخْصَبَهم فكرُك، جئنا نحيِّيك، يا أيُّها المعلِّمُ الحيُّ الخالد.

وجئنا نحيِّيكَ يا مرنَّمُ، يا ابنَ أفرام، أيُّها المسيحيُّ السّريانيُّ، أيُّها المارونيُّ العلاّمةُ كمارونيّ، يا حاملَ الشرق في عينيك وقلبك واللسان، يا قنّينةَ الفكر التي غالَبَتْها الأمواجُ الهُوج فما نالت منها نائلاً، أيُّها المتبحِّرُ في كتاب الحقائق الكبرى اللامبالي بالترّهات، أيُّها الغائصُ بنا إلى معرفة الذات والآخر، أيُّها الراهبُ مَسْلَكاً غيرَ مَشُوب، وتنقيباً في إرث الكنيسة غيرَ مسبوق، ألا فاقتبلْ تحيّتنا.

ونحيِّيك، يا فؤاد، متحدِّراً من أجدادٍ أنجادٍ أجوادٍ كانوا قلبَ جزيرة العرب نِجاراً ولساناً، وخفُّوا يتحضّرون ويبنون مُلْكاً وينتظمون جيشاً ومدرسةً وكنيسةً، فكنتَ وفيّاً لأجدادك الفرسان والقدّيسين تَخلعُ أسماءَهم على أبنائك حارث ويحيى ومنذر وغياث وعَديّ، وفتاتك هند، مثلما كنتَ

مُخلصاً لبيعتك المارونيّة ومَهْبَط أجدادكِ بقرقاشا في الوادي المقدّس فتسمّي باسم عذراء قنّوبين مارينا.

حيّوا معي من رأيناه في إعصار لبنان يصمدُ نسراً، وينبري ثابتَ العزم شاهراً قلماً دونَه القنا ولساناً لم يَحْتبس خوفاً ولا حَذَراً، يُجنّدُ للدفاع عن الكيان مقالاته والأحاديث، وهو من أدركَ أنّ القولَ ينفُذُ ما لا تنفذُ الإبَرُ، وهو من صَحَّ فيه وفي آله قولُ أبي ريشة:

أوَ لستَ مـن نَسْلِ الأُلـى نَسَلـوا العُلـى
وكَسَـوا ديـاجيـرَ الـورى بـمـنـائـرِ

وتـطـلّـعـوا صـوبَ الشـمـوسِ وأسـرَجـوا
لـلـفَـتـحِ صـهـوةَ كـلِّ مُـهْـرٍ ضـامـرِ

وتعالَوا نُحَيِّيهِ، أخيراً، معلّماً عملاقاً تأجّجَ في الوطنيّة اللبنانيّة، وعَلَماً موسوعيّاً تتوّجَ في العروبة الحضاريّة، فنحن ممّن يشهدون أنّ فؤاد أفرام البستاني في طليعة من حملوا رسالة التعايش وأثبتَ أنّ لبنانيّته لم تكن تعصّباً ولا انعزالاً ولا استلاباً للبنان من بيئته العربيّة، وكيف يكون ذلك لدى من كان أشدَّ الأقلام حَدْباً على لسان العرب، وعَزّزَ حضورَ الثقافة اللبنانيّة في الثقافة العربيّة التي وَضَعَ عشرين ألفَ صفحةٍ في تراثها وقيمها الحضاريّة، وجَعَل "دائرةَ المعارف" أداةَ ثقافةٍ صحيحةٍ شاملةٍ في سبيل النشء العربيّ!

أوَ يكونُ الغلوُّ في محبّة الأوطان عيباً، والترهُّبُ للثقافة شَيْناً، والتعصُّبُ للحقيقة ذمّاً، والوحدةُ بين العقيدة والقول والعمل كُفراً، فنسمعَ ونقرأ من يَعيبُ ويَشينُ ويَذُمُّ ويكفّر، بينما لسانُ المعلّم العبقريّ يردّد:

فـكـم جـبـلٍ يـغـفـو عـلـى الـنـجـمِ خَـدُّهُ
وأذيـــالُـــه لـــلســـائـــمـــاتِ مَـــلاعِـــبُ!

فؤاد أفرام، يا رئيسي ومعلّمي، هل أستحقُّ، بَعدُ، أنْ أُدعى لك تلميذاً؟

والسَّلام عليك،

وعليكم السّلام.

د. غالب غانم

فؤاد افرام البستاني في يومه
مَن الشخص ومَن دائرة المعارف؟

إذا بَدا شاقّاً إقناعُ الأجيال الجديدة بالعبِّ من دائرة المعارف بأجزائها الخمسة عشر، أو من سائر الأعمال الموسوعيّة، فأرجو أن يكون بالمستطاع إقناعُها بقراءة التقديم الذي وضعه صاحب هذا اليوم الجلل للجزء الأوّل من الدائرة الصادر في مستهلّ النصف الثاني من القرن العشرين، وهو تقديم واقع في صفحاتٍ أربع، بلا زيادة ولا نقصان.

أدعو إلى قراءة هذه الصفحات، لأظفر بما يمكن الظفر به، في عالم كاد يُنعَتُ بعالم اللاكتاب واللابلاغة، ولأنّها لا تُخيّبُ أملي لدى محاولة تكوين صورةٍ من صورٍ جَمّة يتّصف بها مَن يَستأهل أن نسمّيه معلّماً بالفم الملآن، وعالماً بالمضمون الإنساني المُشرق، وصاحبَ قلبٍ لبنانيّ وقلمٍ عربيّ قلّ أن تجدَ لهما مثيلاً في التعلّق بالأوطان، وفي التخاطب بلغةِ الضّاد كما يتخاطب الفرسان بالأسياف على صهواتِ الجياد.

أقرأ الأربعَ الغنيّات، والمُغنيات عن سواها في هذه اللحظات العَجلى، وأستعيرُ منها معالم ثابتة يُمكن أن تُشكّل مدخلاً يُمهّد لاستقراء شخصيّةٍ أوّلُ ما يلفت فيها هو التناغم ما بين بداياتها والنهايات... وحدةُ المقلع ما بين حجارة الأساس ومداميك الزخارف... حركةُ الاندفاق في مَسيل النّهر منذ

فُوّهات الينابيع حتّى المصبّات الشلاّليّة... والعُلى... عُلى الريشة وعُلى الهامة، منذ البزوغ حتى البلوغ، وهما لم تنحنيا إلاّ للحقائق الكبرى، وللُبنان.

من هذه المعالم أنّ في التقديم رياحاً هابّةً من جهة النهضة العربيّة التي بدأت مصابيح أبنائها تُضوّئ منذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر، وصولاً إلى مكرِّمنا الذي ما قُرِئ مرّةً وما سُمِع إلاّ وكان يُفاجئ القارئ والسّامع بكلماتٍ لُقيات، وبوريقات كنوز، وبطُرَفٍ وطرائف وفرائد تُغنيك أحياناً عن التجوال في مَغَاني الحضارات وزوايا المتاحف.

ومن المعالم غيرةٌ ما بعدها غيرة على لغة الضّاد، ومن ظواهرها الإدراكُ أنّها الأصيلة والأمُّ والينبوع، وحاملةُ المخبّآت والرموز، وحسناؤنا البدويّة السمراء، والعاكسةُ بمراياها الحضاريّة تراثَنَا والأماني. وإذا كانت هذه حالها في وجهها الطقسيّ وفي ادّخار لآلئ الأمس، فهي، كما يقول، "لا تضيق مجالاً بعلم حديث، ولا تعيّى بالتعبير عن فكر جديد إذا ما تدبّرتْها رويّة علمائها الواعين، وكتّابها المخلصين". هاتان الضفّتان تحدّدان بحر اللغة المحيط. وبينهما اختار ابن الضادّ البار لأسلوبه ركائز خمساً هي "استعمال القديم الصالح المأنوس... والأخذُ بالمجاز على أنواعه، وهو باب واسع طرقه العرب في القديم... والأخذ بالاشتقاق أسلوباً ثالثاً... ثمّ بالنحت... وأخيراً بالتعريب". وفي ذلك كلّه ما يؤكّد إيمانه بأنّ اللغة كائن دائم الحياة. جَمّدْهُ تتجمّدِ الحضارة. أَطلقْهُ تنطلقْ معه إلى دنيواتٍ جديدة. أَغلقِ القمقم عليه تحبِسْ عنك نسائم الحرّية والنّماء والحياة. إفتحْ له الدرب يمشِ معك إلى المدهش العصيّ من الفتوحات...

ومن المعالم أنّ الصفحاتِ إيّاها تشقّ لك طريقاً آخر نحو التعرّف إلى واحدٍ من علماء الأنسنة، أو من الانسانيين الكبار (Les Grands Humanistes) ذوي الثقافة الشموليّة الذين تساعدنا في فهم دورهم عودة إلى عصر النهضة الأوروبيّ. كان هؤلاء يُحيُون الآداب القديمة، ويتنسّكون للمعرفة، ويختطّون لأنفسهم منهجاً فكريّاً خاصّاً، وتضيق صدورهم بالدوائر والمربّعات الصغيرة، ويرفدون كيمياء الحرف والأدب بكيمياءات التاريخ والعلم والفلسفة، فيصبحون، على غرار دائرة المعارف، "قاموساً عامّاً لكلّ فنّ ومطلب".

وكان الشرقيّون منهم يسهمون – كما جاء في كلام أستاذنا – في السعي إلى "إقرار مزيد تفاهمٍ وتوادّ بين الشرق والغرب، والعمل على تقدير متبادل للقيم الثقافيّة الإنسانيّة الصحيحة..." إنّ المشرقيين العرب من هؤلاء كانوا من إنتاج النهضة ومن منتجيها. من ثمارها ومن زرّاع المثمر فيها. ولنا الحقّ، لنا الحقّ الآن، في الدلالةِ مرّة أخرى على أنّنا نشهد في موكبهم وجوهاً مكتوباً على جباهها نحن من لبنان، من الأخ الواحةِ الفكريّة، من الأخ اللؤلؤيّ الصغير في هذه الديار العربيّة الرحيبة، الذي قدّم للنهضة ما يُنتظر منه ويزيدا وكيف لا يفعل ما فَعَله، وقد نثر اللّه على شواهقه ومباسطه والمقدّس من أوديته قدرَ ما سكب في عقول أبنائه من مواهب ربّانيّة تفجّرت كرماً في الطبيعة وكرماً في الأقلام... لا، لم يعد غريباً، أمام ما حمله صدر هذا النهضويّ الكبير من مخزون ثقافيّ، وأمام الحاتميّات من كرم قلمه، وبالرغم ممّا في دائرة المعارف من مساهمات "لأعلامٍ من أرباب الأدب وروّاد الجمال" كما يقول، أن تختلط المعرفة على المرء فيخال، إذا ما أمسك بدائرة المعارف، أنّه يصافح فؤاد افرام البستاني، كما يخال، إذا ما جمعه بهذا الفريد مجلسٌ، أنّه أمام دائرة معارف...

وإن أنسى لا أنسى واحداً من هذه المجالس دعانا إليه، زمانَ الفتوّة الأولى والطِّيب والطموح، صديقنا ورفيقنا في الجامعة، حارث، وقد انعقد ذات مساء في عاصمة الأمراء، وفي دارة والده التاريخيّة التي يمكن أن نعتبرها من "عواصم" الثقافة في دير القمر، وفي لبنان. سَقى اللّه أيّاماً كنّا فيها في جوار العشرين، وما عدت أميّز، كلّما استعدتُها بالذكرى، ما إذا كان حارث قد جمعنا بوالدٍ من لحم ودم وظرفٍ وطرافة وفكر ووجدان، أم بدائرة المعارف ذاتها.

و من المعالم أيضاً - علينا ألاّ ننسى ذلك - شيمةُ الوفاء التي لا تُغمط السّلف حقّاً، وعلى الأخصّ إذا كان كالمعلّم بطرس البستاني مؤسّس الدائرة، وكأبنائه سليم ونجيب ونسيب، ونسيبهم سليمان "الالياذيّ" إذا صحّت العبارة. هؤلاء جميعاً، الشركاء في اللقب البستانيّ الذي بات مرادفاً للابداع، وللمآتي الأدبيّة الكبرى، مَرّ المقدّمُ على أسمائهم مرور العالم الذي لا يُغفل حلقة من حلقات السلسلة، ومرور الأديب الذي يمسح الكلام بمسحات الرقّة كلّما دار على حبيب أو قريب.

ومن المعالم أخيراً، بل أوّلاً، هذا الأسلوب البنيانيّ، هذا السهلُ بوَعره، الحديث بجاهليّته، المبتكَرُ بأَصالته، المحبوكُ بما فيه من عباراتٍ تمشي الهيزلى وتتراقص خصراً على خصر وضُمّةً من "جميلات القدود" تتنافس مع ضُمم أُخرى. مالي وللتمعُّل في هذا المقام، والعَجَالةُ فيه مفروضةٌ ومستساغة. ولكنّي أسمح لنفسي باستعادة شهقةٍ من شهقات الإعجاب بكلّ نثرٍ عظيم، أطلقتها في مناسَبَة غير بعيدة عن هذه الساعة (حول كتاب صواري

الزمان لشوقي خير الله)، وقد حمّلتُها كلاماً منطبقاً تمام الانطباق على أسلوب معلّمِنا هذا، طيّب الله ثراه:

ما ذنبي، قلت وأقول منتصراً للنثر النهضويّ، ومنه نثرُه، "إذا كنت لا أزال أقرأ النّثرَ الشامخَ الرأس، والنثر المتأنّي، والنثر المفتول السّاعدين، والنّثر النّسر، والنثر السحر، والنثر الأصالة، والنثر اللّسان المستقيم، والنثر الوجدان، والنثر الجمال، والنثر العقل... لا النثرَ الخجول، والنثر العَجول، والنثر المفكّك الأوصال، والنثر المهيض الجناح، والنثر البلادة، والنثر الهلهلة، والنثر التعثر، والنثر الجفاف، والنثر القبح، والنثر الجنون!"

مثلُ هذا النثر أخذناه في الجامعة عن أساتذة أفذاذ، سمّهم لو شئت أيضاً بحارَ العلوم، وأساطينَ الفصاحة، وملافِنَةَ البيعةِ اللغويّة، كفؤاد افرام البستاني، وبطرس البستاني الثاني، "ربّ الأدب" الذي علّمنا أيضاً في مدرسة الحكمة، والموسوعيّ الآخر جبّور عبد النّور، والفقيه الشيخ صبحي الصالح، وسواهم...

أين هم الآن؟ أينَ هي مكتباتُهم؟ ومتاحفهُم؟ أين الوفاءُ؟ أين المصنّفاتُ والمجلّداتُ ودوائرُ المعارفِ وعماراتُ الأدب والألسُنُ المستقيمة والأقلامُ المشاعل وبحيراتُ العلوم؟ وأين منها الاهتمامات عموماً، واهتمامات الأجيال الجديدة خصوصاً؟ أسألُ الآن عن الأوراق الغالية جميعاً، لا عن الصفحات الأربع وحسب... ولم تكن هذه الصفحات المفاتيح، والمصابيح، غيرَ عيّناتٍ نقدّمها إلى المتأدّبين كما يقدّم الخمّار رشفةً من عصير الكرم ليتلمّظها الذوّاقون، أو كما يعرض الجواهريّ خاتماً مرصّعاً بالأندر والأغلى

ليشدّ إلى حانوتِهِ الحسناوات، فتُفتَتَح سوق الذهب، ويختلط الجمال بالجمال.

البروفسور أهيف سنّو

فؤاد أفرام البستاني وجامعة القدّيس يوسف

بين فؤاد أفرام البستاني وجامعة القدّيس يوسف عُروةٌ وُثقَى لا تَنفَصِم، حُبكت خلالَ سنينَ مديدة، ووطّدها تفاهُمٌ عميقُ الجذور، وتَعاونٌ مستمرٌّ لم تَشُبْه شائبة. وتحتاج العلاقة هذه إلى أناةٍ في البحث، وطُول تأمُّل، لِغناها وتشعُّبها، ولضرورة الاستناد إلى محفوظات جامعة القدّيس يوسف عموماً، ومحفوظات معهد الآداب الشرقيّة خصوصاً، ومنها وثائق كثيرة لم يُكشَف النِّقابُ عنها، أو لم يُستَفَد منها كما ينبغي، أو لم يحِن الوقت لوضعها في التداول.

وحَسْبي في هذه العُجالة، أن أُشير إلى محطّاتٍ أربع، يُمكننا الوقوف عليها، للنظر في بعض ما جَمَع بين الرّجل الفذّ والمؤسَّسة العريقة.

أ- أمّا **المحطّة الأولى** فهي دراسة فؤاد أفرام البستاني في **كليّة القدّيس يوسف**: فقد كان من تلامذة الخطابة (Classe de rhétorique) في الكليّة[1]، وأحَد أعضاء المَحفِل العرَبي فيها[2] بل متقدِّمَه[3]. وقد وَصَفه الأب لويس شيخو (١٨٥٩-١٩٢٧)، وهو يُعرِّف سنة ١٩٢٦، بسلسلة

١- المشرق، ٢٢ (١٩٢٤)، ٢٨١-٢٨٣.
٢- م.ن.، ٢٢ (١٩٢٤)، ٤٥٧-٤٦٤.
٣- م.ن.، ٢٢ (١٩٢٤)، ٨٦٩-٨٧٥؛ ٢٣ (١٩٢٥)، ٥٩-٦٣.

رواياته التاريخيّة، **على عهد الأمير**، فقال: "إنّه غَرْسةٌ أدبيّة جديدة نَمَت في روضة الأُسرة البستانيّة بعد ازدهارها في مُستَنْبَتِ مدرستنا الكُليّة"(٤).

ب- وأمّا **المحطّة الثانية** فهي إسهامه الواسع في مجلّة **المشرق** التي أسّسها الأب لويس شيخو، في بيروت، سنة ١٨٩٨. ويُمكننا أن نتتبّع مسيرّته من خلالها: فقد رافقها مدّة ثلاثين سنة (١٩٢٣-١٩٥٢)، وعاون ثلاثةً من الآباء اليسوعيّين الذين توالَوا على إدارتها، وهُم الآباء هـنـري لامـنس (Henri LAMMENS)، وريـنـيـه مُـرِتـرد (René MOUTERDE)، وروبير شدياق(٥).

وقد سَعى إلى تحقيق أهداف المجلّة؛ وتوّزعت مُشاركته فيها على **مجالاتٍ ثلاثة: أوّلُها** البحوث والدراسات؛ وثانيها وصف المطبوعات الجديدة وما نشرته المجلاّت؛ وثالثها شذرات وتعريفات شتّى. ويبدو في ذلك كلّه، باحثاً متمكّناً من مادّته، وناقداً ثاقب النَّظر، ومترجماً أميناً، وأديباً راوياً، وصاحبَ خواطر عميقة، وشاعراً رقيق العاطفة مؤمناً، ومُراقباً بصيراً حاضراً على الساحة الفكريّة والاجتماعيّة.

وأكثرُ ما يسترعي انتباهَنا في المجالات هذه، **موسوعيّته القائمة على تنوّع اختصاصاته**: فيُدلي بدلوه في تاريخ العرَب وجغرافيّة بلادهم، وتاريخ لُبنان وجغرافيّته، والفلسفة، والتربية، والعِلم. ولكنّ إسهامه الأكبر كان في

٤- م.ن.، ٢٤ (١٩٢٦)، ٨٧٥.

٥- فيما يختصّ بالمشرق ومراحِل صدورها والقيّمين عليها، راجع: أهيف سنّو، "مجلّة المشرق والآداب العربيّة منذ جاهليّتها حتّى الحرب العالميّة الأُولى"، المشرق، ٧٢ (١٩٩٨)، ٣٠٨، الحاشية (٤)، والمآخذ المذكورة فيها.

الدراسات الأدبيّة: فَعُنِي بالآداب العربيّة شعراً ونثراً على تتابع عصورها، مُفسِحاً في المجال للجهود الاستبشراقيّة، معتمداً الدراسة التاريخيّة للأدب - وهي المنهج السائد في أيّامه - متناولاً عصر الأديب وحياته ونتاجه، دارساً أغراض الشاعر، مُقارناً موازناً[٦].

جـ- وأمّا **المحطّة الثالثة فهي جهوده التدريسيّة**: فقد درَّس في كُليّة القدّيس يوسُف (١٩٢٥-١٩٣٥)، قبل أن ينصرف إلى التدريس في **معهد الآداب الشرقيّة**. وكان الآباء اليسوعيّون قد أنشأوا في بيروت، سنة ١٩٠٢، الكليّة الشرقيّة لتعليم كلّ ما يتّصل بالمشرق الساميّ. وقد اضطّرت الحرب العالميّة الأُولى وما تلاها من اضطرابات، الآباء اليسوعيّين إلى توقيف التعليم فيها حتّى سنة ١٩٣٣. ففي هذه السنة، عاد التعليم وأخذ مجراه بشكلٍ جديد، هو دروس في الآداب الشرقيّة (Leçons de lettres orientales)، تتناول فقه اللغة، والآداب، والتاريخ، والآثار، وتستفيد من جهود المستشرقين ومناهجهم، وتتوجّه إلى الشبّان المثقّفين، وأساتذة المدارس من أهل البلد، وإلى الأجانب المقيمين في لبنان. ثُمّ نُظّمت هذه الدروس سنة ١٩٣٦، في معهدٍ دُعي معهد الآداب الشرقيّة، لا يزال مستمرّاً إلى يومنا هذا.

فمنذ تشرين الثاني ١٩٣٣، بدأ فؤاد أفرام البستاني يُلقي دروسه في جامعة القدّيس يوسف، ولم يتوقّف عن التدريس في معهد الآداب الشرقيّة إلاّ في

٦- للتوسّع في إسهامه في المشرق، راجع: أهيف سنّو، "فؤاد أفرام البستاني في مجلّة المشرق (١٩٢٣-١٩٥٢)"، **حَوليّات معهد الآداب الشرقيّة** (جامعة القدّيس يوسف، بيروت، ٢٠٠٠)، المجلّد السابع (١٩٩٣-١٩٩٦)، ص ١٣-٥٩.

خريف ١٩٩٣. وكان في أثناء ذلك **حريصاً على المعهد**، غيوراً عليه، وتلازمت مسيرتاهما إلى حدٍّ بعيدٍ، ولم تَحُل المناصبُ العالية التي تقلّب فيها، دون تأمين دروسه فيه.

وهكذا **انضمّ إلى الرعيل الأوّل** الذي أسّس معهد الآداب الشرقيّة، وتولّى التدريس فيه. وحَسْبِي أن أُشير إلى بعض من ذاعت شهرته من زملائه الأوائل، وهُم (حسب الترتيب الألفبائيّ العربيّ): الآباء جاك بونِيتمار (Jacques BONNET-EYMARD)، وأنطوان بوادبار (Antoine POIDEBARD)، وهنري شارل (Henri Charles)، وهنري جَلابير (Henri JALABERT)، وهنري فليش (Henri FLEISCH)، وبيار مازاس (Pierre MAZAS)، وجان مِيسيريان (Jean MÉCÉRIAN)، ورينيه مُوتِرد (René Mouterde)، فضلاً عن الأساتذة: دانيال شلُومبرِجيه (Daniel SCHLUMBERGER)، وهنري سيريغ (Henri SEYRIG)، وغاستون فييت (Gaston WIET)، والمغفور لهما: خليل الجرّ، وجبّور عبد النور، وغيرُ هؤلاء كثير. وتجدر الإشارة إلى أنّه تولّى سنة ١٩٦٣، مع الأب موريس تالون (Maurice TALLON) تمثيل المعهد في مجلس جامعة القدّيس يوسف.

وتنتظم دروس فؤاد أفرام البستاني في معهد الآداب الشرقيّة في **ثلاثة محاوِر**[٧].

٧- يُمكن تتبُّع هذه المحاور وتفاصيلها، من خلال الكتيّبات التعريفيّة التي تتضمّن البرامج الدراسيّة في معهد الآداب الشرقيّة، منذ العام الجامعيّ ١٩٣٣-١٩٣٤، حتّى العامّ الجامعيّ ١٩٩٢-١٩٩٣.

١- **الآداب العربيّة**، وقد درّسها منذ خريف ١٩٣٣ إلى خريف ١٩٩٣، وسلك عدّة مسالك. فخصّص دروسَه في كلّ سنة جامعيّة بين ١٩٣٣ و١٩٣٩ **لعاصمة من عواصم الأدب العربي** مُتناولاً تأسيسها، وحياتها الاجتماعيّة والثقافيّة والفكريّة، والفُنون الأدبيّة وأهمّ الشعراء والأدباء فيها. فانطلق من بغداد أيّام العبّاسيّين (١٩٣٣-١٩٣٤)، إلى دمشق أيّام الأمويّين (١٩٣٤-١٩٣٥)، فإلى حَلَب أيّام الحمدانيّين (١٩٣٥-١٩٣٦)، فالقاهرة أيّام الفاطميّين (١٩٣٦-١٩٣٧)، فقُرطُبَة وغرناطة وإشبيلية عواصم الأدب في الأندلس (١٩٣٧-١٩٣٨)، فبيروت عاصمة النهضة (١٩٣٨-١٩٣٩).

ثمّ درّس **الجاهليّة** (١٩٣٩-١٩٤٠) بصفتها مهداً للآداب العربيّة، قبل أن ينصرف في كلّ سنة جامعيّة إلى دراسة **الفنون الأدبيّة** في عهد من العهود التاريخيّة. فانطلق من الفنون الأدبيّة في الجاهليّة (١٩٤٠-١٩٤١)، إلى الفنون الأدبيّة في العهد الأمويّ (١٩٤١-١٩٤٢)، فالعهد العبّاسي (١٩٤٢-١٩٤٣)، ففي أيّام الحمدانيّين (١٩٤٣-١٩٤٤)، فالفاطميّين (١٩٤٤-١٩٤٥)، ففي الأندلس (١٩٤٥-١٩٤٦)، ففي عصر النهضة (١٩٤٦-١٩٤٧، ١٩٤٧-١٩٤٨).

وبعدما استنفد خُطّته هذه، تابع تنويع دروسه من سنة إلى أُخرى مُنتقلاً من عصرٍ إلى عصر؛ ثمّ نلاحظ أنّه، منذ منتصف الستّينيّات، انصرف بشكلٍ مستمرّ إلى **آداب الجاهليّة والعصر الأمويّ**، مشدّداً على مجموعة من الشعراء والأدباء الذين يُمثّلون عصرهم خير تمثيل. فاختار في الجاهليّة الشنفرى ممثّلاً للصعاليك، والأعشى لشعراء المدح، وعديّ بن زيد لشعراء

الحضَر؛ واختار في العهد الأُمويّ الأخطل ممثّلاً للشعر السياسيّ، وعُمر بن أبي ربيعة لتطوّر الشعر الحضريّ، وعبدَ الحميد الكاتب لظهور النثر العربيّ.

٢- وأمّا **المحور الثاني** فهو دروسٌ تناول فيها منذ ١٩٤٢ حتّى ١٩٤٦، **نُظُم الشعوب الناطقة باللغة العربيّة**، ومنذ ١٩٤٦ حتّى منتصف الستّينيّات **حضارةَ البلدان الناطقة باللغة العربيّة**. واعتمد في ذلك دراسة النصوص المتنوّعة، وتمارين تُطرح على الطلبة. وتدرّج في تدريسه النُظُم من عصرٍ إلى عصرٍ (الجاهليّة - صدر الإسلام - العصر الأموي - العصر العباسيّ الأوّل) مُخصِّصاً لكلّ عصرٍ سنةً جامعيّة كاملة.

٣- وأمّا **المحور الثالث** فيبرز منذ العام الجامعي ١٩٧٣-١٩٧٤، إذ أضاف إلى تدريس الجاهليّة والعصر الأموي، **تدريس الحضارة العربيّة الحديثة والمُعاصِرة**، ورمى من خلال ذلك إلى وَضع مدخلٍ إلى دراسة الآداب العربيّة. فحلَّلَ مفهوم الثقافة، والحضارة، والأدب، وتتبّع الفنون الأدبيّة، قديمَها وحديثَها، في تطوّرها، وشدّد على دور اللبنانيّين في تطوير الفنون القديمة وابتداع فنونٍ جديدة.

وتجدر الإشارة إلى **الجِسر** الذي أقامه فؤاد افرام البستاني بين معهد الآداب الشرقيّة من جهة، ومجلّة **المشرق** من جهة أُخرى، عملاً بالتوجّه الذي حدّده سنة ١٩٣٣، رئيس جامعة القدّيس يوسف، الأب كوستا دو بورُغار (J. Costa de BEAUREGARD)، في رسالةٍ عامّة وجّهها في ١٠ تشرين الأوّل، لمناسبة افتتاح "دروس الآداب الشرقيّة"[٨]:

٨- راجع وجه الورقة التعريفيّة بـ "دروس الآداب الشرقيّة"، للعام الدراسيّ ١٩٣٣-١٩٣٤.

- فمقالته: "بغداد عاصمة الأدب العبّاسيّ"، المنشورة في **المشرق**[9]، سنة ١٩٣٤، هي مادّة المحاضرتَين الأُولَيَين من محاضرات معهد الآداب الشرقيّة، في فرع الفلسفة والآداب الساميّة؛

- ومقالته: "تمازج العناصر البشريّة في بغداد العبّاسيّين"، المنشورة في **المشرق**[10]، سنة ١٩٤١، هي مادّة المحاضرتَين الثالثة والرابعة من محاضرات معهد الآداب الشرقيّة في الفرع نفسه؛

- ومقالته: "الإنشاد أو الفنّ الأصيل في الأدب الجاهليّ"، المنشورة في **المشرق**[11]، سنة ١٩٤١ أيضاً، هي مادّة المحاضرات الأُولى والثانية والثالثة من محاضرات معهد الآداب الشرقيّة في فرع الأدب العربيّ، للسنة الدراسيّة ١٩٤٠-١٩٤١.

٤- وأمّا **المحطّة الرابعة** والأخيرة فهي تلك **العلاقة التي قامت بين فؤاد أفرام البستاني والآباء اليسوعيّين**. فقد كان وثيق الصلة بهم، يُطلعونه على خصوصيّات مؤسّساتهم، ويذكرونه في بعض كتاباتهم، باسمه الأوّل: "فؤاد"، أُلفةً وتحبّباً. وفي هذا المقام، نذكر حادثةً جرَت له في مستهلّ حياته، سنة ١٩٢٣، يوم كان لا يزال تلميذاً، إذ انبرى للدفاع عن الأب لويس شيخو، بعدما انتقد عبد المسيح حدّاد بعضَ ما كتبه في جبران خليل جبران. فكتَب فؤاد أفرام البستاني: "أنا لا أُدافع عن الأب شيخو ولا أتحامَل على جبران. فإنّ لكلٍّ من الكاتبَين في عالم الأدب مركزاً

٩- المشرق، ٣٢ (١٩٣٤)، ٦٥-١٠٨.
١٠- م.ن.، ٣٢ (١٩٣٤)، ٤٠٩-٤٤٠.
١١- م.ن.، ٣٩ (١٩٤١)، ٧٥-٨٧، ١٨٥-٢٠٧.

معروفاً، على ذوي النقد أن يُقدّروه كما يَشاؤون (...). جبران خليل جبران شاعِرٌ رسّامٌ بارع ولَسِنٌ قدير وأحدُ حَمَلة القَلَم العربي في هذا العصر، ولكنّ كتابه **البدائع والطرائف** يجمع بين الدرّة والبَعرة، ومع بدائعه التوافه والسفاسف"[١٢].

وبعد، فهذا غيضٌ من فيض العلاقة بين فؤاد أفرام البستاني وجامعة القدّيس يوسف والآباء اليسوعيّين. ولكنّه، على ضآلته، يُلقي الضوء على تلازُم مسيرتَين متكاملتَين متعاضِدتَين رَمَتا إلى النّهضة بالآداب العربيّة، وإلى تمكين لبنان من تمثيل أبرز الأدوار فيها. فقد التقت المسيرتان يوم دخَل فؤاد أفرام البستاني كليّة القدّيس يوسف، ثمّ تآلفتا وتآزَرتا لتثمرا دراساتٍ وأبحاثاً أغنَت عقول الطلبة اللبنانيّين والآتين إلى لبنان من عربٍ وأجانب، وأذهانَ القرّاء على امتداد المعمورة.

وهذه المسيرة مستمرّة اليوم: ففؤاد أفرام البستاني ما زال حاضراً في معهد الآداب الشرقيّة حضورَه بالأمس[١٣]، وحضورَه في هذه الجامعة الكريمة. فبيننا جميعاً وبينَه صداقةٌ عميقة الجذور، ووفاءٌ لا يني على كَرّ الأيّام. ونأمل أن نكون له بمنزلة ذاك الصديق الذي خاطبه في إحدى قصائده، وهو في مُقتَبَل العُمر، فقال:

١٢- م.ن.، ٢١ (١٩٢٣)، ٩١١، ٩١٢. للمقابلة: أهيف سنّو، "فؤاد أفرام البستاني في مجلّة المشرق (١٩٢٣-١٩٥٢)"، **حوليّات معهد الآداب الشرقيّة**، ٧/٢٥-٢٦.

١٣- ممّا خصّه به معهد الآداب الشرقيّة، المجلّد السابع من **حوليّاته** (جامعة القدّيس يوسف، بيروت، ٢٠٠٠) الذي تضمّن ثلاثاً وعشرين مقالة بالعربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة، أهداه إيّاها زملاؤه وتلامذته في لبنان وفرنسا، خُصّصت ثلاث منها لمعالجة بعض الجوانب من شخصيّته

ذم لـيَ الـعُـمْـرَ رفـيـقـاً وخَـلـيـلْ
وذلـيـلاً فـي تَـعـاريـجِ الـحَـيـاةْ

واقْـتَـبِـلْ مـنّـي صـفـاءً لا يَـحُـولْ
وَوَداداً خـالِـصـاً حـتّـى الـمـماتْ

وإذا الـدَّهـرُ تَـغـيَّـرْ
ومُـنِـيـنـا بـالـبُـعـادْ

إفـتـكـرْ بِـي وتَـذكَّـرْ
بـعضَ مـا فـي ذا الـفُـؤادْ

يـا صـديـقـي![14]

فنحنُ نفتكِر، ونحن نتذكّر.

وإنتاجه. وقد تناوله الدكتور وليم الخازن بكلمة في مؤتمر الدراسات الشرقيّة في جامعة القدّيس يوسف، الذي نظّمه معهد الآداب الشرقيّة لمناسبة انقضاء ماية وخمسٍ وعشرين سنة على تأسيس جامعة القدّيس يوسف، وذلك في ٢٤ شباط ٢٠٠٠ (أعمال المؤتمر قيد الطبع). ودَرَست الأخت ريموند هاشم، "مقالات فؤاد أفرام البستاني [الأدبيّة] في دائرة المعارف: فهرستها وتحليلها"، في رسالة ماجستير في اللغة العربيّة وآدابها، أشرف عليها الدكتور متري بولس، في معهد الآداب الشرقيّة، بيروت، ..٢٠٠٤.

١٤- المشرق، ٢٣ (١٩٢٥)، ٥٩-٦٣.

ملحق

سعيد عقل

أميرُ أقلامنا*

تمايَدي، بعلبكُّ، اليومَ رجْعُ صَدَى
لِجَرِّ ريشتِهِ مَن مَيَّدَ العُمُدا

أميرُ أقلامِنا، لا الصُبْحُ ضارِعَهُ
ضَوءاً، ولا الليلُ جَارى عُمْقَهُ بُعُدا

أعطى ذُرانا شُموخاً، عقلَنا كِبرًا،
أعطى شِعافَ السَما زُرْقاتِها الجُدُدا

رَوى لنا الأمْسَ؟ هذي هُمْ، هُوَ - اشتعِلي
رُوسَ الجبال - رَوى الأمسَ استَحالَ غَدَا

مِن بَعدِه الدهْر أفتى أنْ صِباهُ بِنا،
راءٍ إلى.. الروضَ عَلَّى يَقرَأُ الجَلَدا

---

* قالها سعيد عقل في أربعين فؤاد افرام البستاني، التي أقامتها جامعة سيّدة اللويزة، وشارك فيها وجوه كبرى في مملكة القلم. وقد نشرها الشاعر في مجموعته: نحت في الضوء، الصادرة عن منشورات الجامعة - الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

إِنْ رُحتُ أطريه يُغضي رأسُه دَعَةً
كَرأسِ صنَّين يهوِي - إنْ هَوى - صُعُدا

ما نَحنُ مِن قَبْلِهِ؟ أرضٌ لها سَعَتا
مِنديلِ حسناءَ يَحكي عُنقَها غَيَدَا

وبَعدَهُ نَحنُ نَحنُ العِلمُ قاطِبَةً
أوروبٌ نَحنُ كَتبناها نُهىً ويَدا

نُوحي إلى عِلم "بيرارَ" العظيمِ، بما
يَروح يُوغِرُهُمْ أهلَ القِلى حَسَدا،

سَطْراً ولا الشمسَ: "كانت أمٌّ أربُعِنا
فِينيقيا، ورَبِينا البُقعَةَ الوَلَدا"

* * *

معلِّمُ العَصر، ما تعليمُه؟ كِبَرٌ
كالبَرقِ، كالرعدِ هَزَّ المُزْرَ والمُرْدا

يَسيغُه الكُلُّ، أمٌّ فيه قَبلَ أبٍ،
وقلبُ أمٍّ، ولو في القبرِ، ما بَرُدا

مُقَيِّمُ الناسِ إمّا الناسُ من ذَهَبٍ
فإنْ هُمُ مِن تُرابٍ عَفَّ ما نَقَدا...

إنْ راح يَسخَرُ أبقى الهُزءَ مُحتَشِماً
ما ماتَ، قلتَ، الذي أرداهُ، بل رَقَدا...

حَبَبْتُه أنا حُبّي الشَمسَ طالِعَةً...
لِذا تَفهّمتَه، في الأنجُمِ، الحَرَدا

ولي أنا بِهوى البُدّاعِ غَيٌّ غَوٍ
والنهرُ لِلنهرِ إمّا مِنهُما ارتُفِدا...

عَقلٌ كما القَلبُ لَفحاً، وهو آونةً،
يَدٌ إلى رَبٌّ قَصْرٍ مَدَّهُ نَجِدا

يَبنيهِ... يَرجوهُ يَبني... راح يُوجِعُه
أنْ ظَلَّ لا أحداً مَن شاءَه أحَدا...

في أسٌ تَعليمِهِ أنَّ الثقافَةَ ما
جَبَلْتَه بِكَ، دِرْعٌ حُبُّكَتْ زَرَدا

تقولُ أعطَتكَ؟ كابِرْ، هذه ضَؤلَتْ...
مَوعودُها؟.. جُزْءُ، سَلْطِنْ، كُنْكَ مَن وَعَدا!

مُنِشّئَ العِلْيةِ الأحرار، شِلْتَ بِهِمْ
نَهَدتَ تُبدعُ، لبّاكَ الذي نَهَدا

أبعلبكٌ يداكَ؟... اشتهَدْهما رَمَتا
إلى الزمانِ عَمَاراتٍ حَدَوْنَ حِدا

حَبَبْتُ صَعْبَكَ قال الضوءَ، كُلٌ صَفاً
قَصَّبْتَ قُلْ حجرٌ لا اغبرٌ لا كَمِدا

كأنّما الشمسُ إذْ وافتْ مُكَلّمَها
قالت: أنا زَنبقي كلّمتُ والوُرُدا

ورائعٌ أنْ تَضِجَّ الشمسُ في أَدبٍ
لبنانُ مُلهِبُه واللّهَبُ ما هَمَدا

كأنْ هنا الصخرُ صَكُّ المُلهَمينَ، كأَنْ
هُنا على الشَطِّ غاصَ اللهُ... وابتردا...

ما وَحدَها ارضُنا افتَنَّتْ بِساحلِها
وبالجِبالِ أنيقاتٍ ولو جُرُدا

البَحرُ زايَدَ - هذا بَحرُنا - أَوما
قالوه زُبْدَةَ فِكْرٍ خَمَّر الزَبَدا؟

هُنا فَتَحنا، فَتَحنا في السماء، بِها
هُمْ اكتوَوا، نحن جُنِّدْنا لها جُنُدا

وقال نَعرِفُها غَيباً وتَهجِئَةً
هذي السماءَ التي صارَت لَنا بَلَدا...

وكان عَونُكَ سَطراً خَطَّه لِعُليً،
لكُلِّ اغراءةٍ لا مِن عُليً صَمَدا

كَأنّما الشَرفُ القاماتُ واقفةً
كالرُمحِ لا الصَبرُ أكْدَى[1] لا الصِبا نَفَدا

فَفي الثَمانينَ تُلقي الدرسَ شَعٌّ لَظىً
كابنِ الثَلاثينَ سِحْراً جِدَّةً ونَدى

تُراكَ وحدَكَ تَدري ما الزمانُ، بها
فتَحتَ فَتحَكَ؟... قُلْ، يا مارِداً مَرَدا

وما الزَمانُ؟ - تَهَيُّبٌ، عقلٌ، إنْ طَمِحَتْ
رُؤاكَ تَطلُبُ رَصْدَ النَجمِ ما رُصِدا -

قُلِ الزمانُ اخترعناهُ ولا سَنَدَ
لَهُ، ولَمّا اخترعناهُ غَدا السَنَدا

---

١ - بَخُلَ

مَدىً نُعاينُ ما بين الهُنا وهُنا،

لِمْ بينَ عَيشٍ وعيشٍ، لا؟ نقولُ: هُدى

أنْ يَحوِيَ العِبْرَ هذا قُمْقُمٌ، وَلَئِنْ

نَقبَلْه قُمْقُمَه نَقْبَلْ لَهُ الجَسَدا

بلى الزمانُ ولا اللاشيءُ. زِدْ: وعلى

رُغْماتِها، جِذه شَيئاً راسَ مَنْ وُجدا

وَيْحَ الأُولى جَهِلوه قالَ صارَ. هُمُ

لم يُخصِبوه، هو استَرخى، جَفا، جَرُدا

والآخَرون الأولى عاشوه شيءَ عُلىً

خُذْهُمْ عُلىً، خُذْهُمُ التاريخَ ضَجٌ جَدا[2]

مُعَلِّمٌ، اغنَمْ معي عِزَّ الزمانِ، أنا

حبَستُ آمادَه في كِلْمَةٍ أَمَدا

قَصَصْتَ، قَيَّمتَ، قُلْتَ الغابرين كأنْ

بناتُ صُوَرَ... وصُوَرُ اختارتِ البُرُدا...

٢- عطيّة

حتّى العِدى غَنِموا مِنْكَ: انزرعتَ بِهِمْ،
كالحبِّ، حَبَّةَ خَيرٍ، مَوسِماً رَغَدا

تَبلوهُمْ بِكَ، تُعطِيهِم دروسَ هُدىً
بِالسيفِ؟... تصغُر. بل بِالسيفِ ما غُمِدا

ماذا المِدى، يومَ حربٍ، لا جَبِينَ لها؟
لها... وشمختُه شَرْطُ اصطكاكِ مِدىً!

وكُنْتَ لي أنا ما؟ سِيناءَ مُلهِمَةً،
لِلعَصرِ مَدّاً له، للأعصُرِ المَدَدا

غَرِدْتُ، أَشهَدُ، لا إلاّ لِتَسمَعَني،
هَزَزْتَ رَأسَكَ تَرضى، قُلْتُني غَرِدا

وقلتَ بي ما رَمى الدُّنيا على قَلَمِي
أعطى اتِّضاعي رَفَاهاً، جَهْلَتي رَشَدا

على الأُولى يَكبرونِي قُلْتَ أَنْ قَلَمِي
مَضى يُؤَثِّر؟ هذي المَجْدُ مُحتَشِدا!

لا ما قَرأتُ أنا سَطراً أحبَّ إلى
مَن ماد خضرُ القوافي بعدَه مَيَدا

مُقلِّدَ الناسِ سيفاً، ظَلَّ مِقبَضَهُ
وظَلّهُ هُوَ يُرضي عِلْيَةً وعِدِى

ماذا! تُراني أُعطَى أَنْ أقولَ أنا
ما أنتَ للعصرِ؟ خُذْها شعَّثَتْ بَدَدا:

العَصْرُ أَنتَ، فما تَترُكُهُ مُتَّرَكٌ
ومَن خَتمتَ على مَجدٍ له مَجْدا

والعصرُ كُلاًّ بكلٍّ جَاءَ في عُرُسٍ،
يومَ الوفاءِ، يُحيِّي فِيكَ مَن فَرْدا

لا رأسَ أَشمخُ مِن هذا الذي حَمَلَتْ
كِتفاكَ، يَختالُ فيه الضوءُ مُتَّقِدا!

عَقْلٌ عَطِيَّةُ مَن أَعطى، تَقولُ بهِ
دُنياه: زايدتُ، لكنْ فاقَني زَيَدَا

كأنْ بهِ قِمَمُ التاريخِ حاضرةٌ
دَوماً، لها سَهمُها في فَكِّه العُقَدا

"لبنانُك الدائِمُ" استولَتْ عليه رُبىً،
فَرَدَّهُنَّ جبالاً لُعَّباً بِمَدى...

مَن ماردٌ؟ سَلْكَ أنتَ، العِلمُ أنتَ ولا
إلاّكَ. مَن ماردٌ؟ مَن جوّدَ العَدَدا

والجُودَةُ؟ اكسِرْه طُوقَ الفَوق، حُطّ هُنا
يَدَ السماءِ ازدَرَته سَرْدَ مَن سَرَدا

كيما يُطِلُّ الذي كالشِعْرِ صالَ: أنا
لم أُعْطَهُ الأزَلَ، اعلوليتُني الأبدا!

مَن، مِن صِبا الدهرِ، مِمّن رُحْتَ تَقدُرُهُمْ،
غُيّابُ وجهِ هُمُ أَمْ حاضرون بُدى

له مهابَةُ ربٍّ، كي أُحمِّلَه
تاجاً ببالِ نُجيماتِ الضُحى وَرَدا؟

مَن؟ لستُ أعرف. إلاّ أنْ يَضِجَّ فَمِي:
تَنَحَّ، يا عَرْشُ، قَبْلَ العرشِ قد خَلَدا!

المحتوى

ISBN: 9953-418-55-1

